المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ـ
الجمهورية العراقية
المجلد الثاني عشر ـ العدد الثالث ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م

٣

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء المدن محمد

رحلة « لجان » الى العراق
١٨٦٦ م

ترجمها من الفرنسية وعلق عليها
الأب الدكتور بطرس حداد
بغداد ـ الجمهورية العراقية

مقدمة المترجم

هذه رحلة لسائح فرنسي اسمه گيوم لجان (١٨٢٨–١٨٧١) Guillaum Lejean ، الذي طاف في ارجاء آسيا وافريقيا ، فزار بلاد البلقان ، وذهب الى الحبشة (١٨٦٢)ملبيا دعوة النجاشي تيودوروس ، وصعد الى اعالي النيل، ثم عاد وتجول في انحاء البلاد العثمانية فقدم الى العراق(١٨٦٦) فزار الموصل واقتصر في دجلة الى بغداد ومنها الى البصرة وغايته الذهاب الى الهند .

له مؤلفات عديدة ، ذكر المعجم الفرنسي « الاروس الكبير » بعضها في الجزء الخامس : صفحة ٦٣٠ منها :

١ ـ سكان تركيا الاوروبية (١٨٦١)
٢ ـ رحلة الى النيل (١٨٦٥)
٣ ـ رحلة الى الحبشة (نص وخرائط) .
٤ ـ تيودوروس الثاني والدولة الحبشية الجديدة (١٨٦٥) .

أما الرحلة التي نقدمها الى القراء ، فقد نقلناها عن نصها الفرنسي المنشور في مجلة Le Tour du Monde سنة ١٨٦٧ في الصفحات ٢٩ ـ ٩٦ .

ولقد ذكر السائح انه حل في الموصل ثلاثة اسابيع وزار شمال العراق ، لكنه لم يصف شيئا من تلك الزيارة في النص الذي نقلناه عنه ، فدهشنا من نص آخر يختلف عن الطبعة التي ترجمنا عنها علّه يكون أوسع مادة فلم نعثر على ما يشفي الغليل فاكتفينا بتقديم ما وجدناه في هذه الطبعة .

ومن حسنات هذه الطبعة انها مزينة برسوم وتخطيطات رأينا في نشرها فائدة للباحثين .

ان السيد « لجان » صاحب الرحلة واسع الافق ، فهو مطلع على ما كتبه الاقدمون والمتاخرون منذ هيرودوتس وزنيفون الى جسني وبادجر ورولنسون وما بين هؤلاء واولئك من رحالين من امثال دبلافاليه واوليفيه .

لقد نقلنا النص بامانة ، ولم نهمل الا الفقرات التي لم نجد فيها فائدة للقراء او عندما يطلق المؤلف عنان افكاره في تعليقات خاصة لا تمت الى الموضوع بصلة مباشرة ، كما اهملنا تلك الجمل التي يستشف منها منحى قومية غير مستحبة .

وقد وضعنا عناوين في مطلع الفقرات ، واضفنا تعليقات وهوامش لا وجود لها في الاصل اذ رأينا من الضروري وضعها لفائدة القراء ، ومن الله التوفيق .

WWW.ATTAWEEL.COM

رحلة لجان الى العراق (١)

من الموصل الى بغداد

بعد ان امضيت مدة ثمانية ايام في ربوع آشور وتجولت في منطقة كردستان ، فانتهزت الفرصة وزرت العمادية والوديان الجميلة حيث تتناثر قرى النساطرة(٢) ، ثم انتقلت الى زاخو لاشاهد الآثار الجليلة المحيطة بها ؛ واخيراً وصلت الى الارض التي شاهدت يوما واقعة اربيل(٣) ، هذه الارض التي لم يعد فيها ما يلفت النظر بقدر ما يثير الخيال . ولذا قررت الرحيل الى بغداد وزيارة بابل ، وهي في طريقي اذ انني اقصد الوصول الى الخليج .

كان امامي طريقان للذهاب الى بغداد ، طريق البر الذي يمر بكركوك ويكثر فيه الاكراد والاعراب، وطريق النهر اي السفر في دجلة بواسطة الرمث ؛ ففضلت الطريق الثاني ؛ ففي طريق البر اشياء غريبة قليلة ، سبق ان نوه بها بعض الرحالين في القرن الماضي بعد ان سلكوه .

الكلك

اعددت المدة لاسافر بواسطة كلك كان مهيأ للسفر الى بغداد ، وما ادراك ما الكلك ! انه ضرب من المراكب التي تمخر في دجلة منذ ثلاثة الاف سنة ونيف ؛ وينطبق عليه الوصف الذي ذكره هيردوتس(٤) . فالشرق الجامد يتقدم في كل خطوة شواهد ، ولذا فان الامور القديمة تفهم بسهولة في مواقعها .

ان التاجر المسافر من ديار بكر الى الموصل او من الموصل الى بغداد يعد لنفسه كلكاً مشدوداً فوق عدد من القرب المنفوخة يتناسب عددها مع الثقل الذي ستحمله ، ويوزع التاجر بضائعه فوق الكلك وينصب غرفة من الاخشاب او خيمة بسيطة . ويسير الكلك مع مجرى المياه ، ويتوقف عادة في الليل في المواضع الامنة ، فهو لا يتمسك بمحطات مقررة ، بل حيثما يداهمه الظلام ، وبعد ان يصل الى هدفه ؛ ينقض الكلك فيعيد التاجر القرب معه الى موطنه محملة على الجمال اما الاخشاب فيبيعها في السوق المحلي اذ تكون اغلى ثمناً من موطنه فهي ارخص في اعالي النهر

وجدت ضالتي بسهولة في كلك مهيأ للسفر، فامرت ان تعدلي غرفة من الخشب الابيض دفعت كلفتها من حسابي ، وبعد ان ودعت اصدقائي الطيبين في الموصل ومنهم السيد « لانوس » قنصل فرنسا وقريبه ، ذهبت صباح احد ايام شهر اذار ١٨٦٦ الى الكلك المرابط امام « يارمجة »(٥) فانطلقنا من هناك مع النهر الذي كان مستواه قد صعد منذ ايام ، ومررنا امام اثار نمرود ولم نتوقف ، ولاحاجة للكلام عنها فهي معروفة جيدا. وعند المساء توقفنا قرب جزيرة مزروعة بالذرة .

لم اكن مسرعاً في سفري ولذا فلم انزعج من التوقفات فهي مفيدة اذ تمنحنا فرصة للراحة والتخلص من الوضع الثابت فوق الكلك ؛ وينتهزها المسافرون لاعداد طعام ساخن ، فايقاد النار فوق الكلك خطر على البضائع لكثرتها وتراكمها ؛ وعلى الكلك ذاته .

كنت اتجول عند حافة النهر ما بين اشجار الصفصاف نحو نصف ساعة ، ثم استسلم لرقاد الليل ، ودامت هذه الحالة خمسة ايام ولم يحدث مايكدر صفو رحلتنا ، ولم نمر بما يلفت النظر من قرى واثار ، فقد كانت الارض التي نمر بازائها مستوية خصبة جدا فهي غنية بترسبات الفيضانات ، لكنها مهملة بسبب الخوف من غزوات البدو من جهة ؛ وحكومة متهاونة يرثى لها .

مررنا في اليوم الرابع بسلسلة « جبال حمرين» وهي سلسلة غير عالية ؛ تقطع دجلة وديالى باتجاه شمال ـ غرب ، جنوب ـ شرق .

وفي اليوم التالي توقفنا مقابل تكريت .

تكريت

تقع هذه البلدة الصغيرة على ضفة دجلة الغربية ، يتقدمها اثر قديم جدير بالاعتبار هو قلعة مربعة الشكل مشيدة باللبن ، اصبحت بتقادم الزمن كمعظم القلاع البابلية اكمة ترابية لا معالم لها ؛ ولم تحافظ الاعلى بقايا اسس بعض الابنية التي كانت قيها خاصة في الجانب الجنوبي . وهناك ايضا طاق البوابة الذي يرجع الى عصر

---

١ ـ العنوان الاصلي : « رحلة في ارض بابل » .
٢ ـ يريد الآشوريين .
٣ ـ لعله يشير الى قرية « كرمليس » فهناك من يقول ان « معركة اربيل » بين الفرس والاغريق حدثت في سهل كرمليس وفي المراجع القديمة « غوغاميلا » .
٤ ـ مؤرخ يوناني مشهور (نحو ٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق.م) يلقب بابي التاريخ .
٥ ـ قرية قرب الموصل على الجانب الايسر من دجلة .

قديم . وفي السهل الواطيء المحيط بالقلعة اثار الخنادق الواسعة .

لقد نظرت الى هذا الاثر الشاحب باحترام ، والقيت عليه تحية اكبار ، ففي هذا الموضع راى النور رجل عظيم هو السلطان صلاح الدين ذاك الند الكفوء « لريشارد قلب الاسد »(٦) .

اما تكريت فهي قصبة عربية كبيرة مهملة ويذكر التقليد المتواتر انها كانت نصرانية ، ويشار الى اثر يقع في الجهة المقابلة للقلعة ويطلق عليه اسم الكنيسة .

من الامور الطريفة ان سائحا انكليزيا مر بتكريت وسأل احدهم ان يرشده الى مافيها من غرائب فاجابه بتهكم : « لدينا كافر يهودي وحيد ونخلة عقيمة !» وهي النخلة الوحيدة فعلا في هذه المنطقة وتظهر في الصورة التي رسمتها لتكريت

بعد ان امضينا فترة قرب النهر ، رحلنا فمررنا بقرية عربية تقع على ضفة النهر الشرقية ، وهناك استقبل اهل الكتك زيارة ظريفة ، فقد وافتنا بعض نساء القرية سابحات تحمل كل منهن صحنين الواحد فوق الراس والاخر بكف يدها اليسرى بصورة افقية وفيها السلعة التي تعرضها للبيع وهي من مشتقات الحليب . انها مهارة ما بعدها مهارة وحاولت تقليدهن فلم افلح ، لقد تعودن على السباحة بتحريك الذراع اليمنى فقط . . . انهن سمروات كنساء النيل الابيض العربيات ؛ ومنظرهن وهن يسبحن كابي الهول الجاثم ؛ وقد القين ملاءة رقيقة على رؤسهن ، ويخرجن من الماء مبللات وقد التصقت الالبسة على اجسادهن النحيلة المتينة .

لقد تاقلم هؤلاء النساء مع الماء ، ولا تقتصر مهارة السباحة على النساء لاني رايت رجالا وقد احتضن واحدهم زقا منفوخا وبعد ان تعرى ووضع البسته فوق راسه مثل عمامة كبيرة ، ويكتفون بسروال غامق قصير يلف اوساطهم . وعندما يصلون الى الشاطيء يلبسون العباءة ويحملون الزق او الزقين ويمضون في سبيلهم ، بينما لا تستعمل النساء الزقاق ، فيظهر ان طبيعتهن تساعدهن على السباحة .

قبل وصولنا الى بغداد ببومين ، بدات الاحظ

٦ – ملك انكلترا (١١٨٩ – ١١٩٩) من شخصيات الحروب الصليبية .

امورا اكثر اثارة على ضفتي النهر . فعند اول انعطاف كبير للنهر نحو الغرب رايت سلسلة من التلال تميل الى الجنوب الغربي اي باتجاه الفرات ويطلق الاهلون عليها اسم « سد نمرود » وهي حسب قول الاقدمين « سور مادي » الذي عبره العشرة الاف محارب في حملة « كوفاكسا »(٧) ولا نملك معلومات وافية عنها . اكان هذا سورا شبيها بسور الصين شيد ليكون مانعا امام غزوات البرابرة من جهة ما بين النهرين ؛ هذا محتمل جدا . ام انه امد لقناة صممت لنقل مياه دجلة الى داخل شبه الجزيرة ، هذا احتمال آخر ، لكني افضل الراي الاول .

بعد اميال قليلة وصلنا إلى «تل منجور» حيث نشاهد بقايا اخربة قديمة ، قال عنها السيد « جينس » (وهو اشهر من درس هذه المنطقة) انها موضع مدينة « اوبس » وهي واحدة من اهم مدن اعالي بابل ؛ وقد دامت الى العصر السلوقي ؛ ففي هذا العصر بنوا مدينة سموها « انطاكية » لتكون منافسة لتلك ؛ ولانعلم شيئا عنها ولا عن موقعها .

سامراء

جذب نظري فيما بعد بناء غريب الشكل ، وهو برج مشيد بالطابوق ، حلزوني الشكل يقع بالقرب من مدينة تدعى « سوميرا او سامرا » وهذا اسم قديم بقي الى اليوم . لقد كان هذا البرج مرصدا على ايام الخلفاء ، وقد يكون اقدم عهدا منهم وقد اقيم لهذه الغاية منذ القدم ، اذ يجب الا يبرح عن ذهننا باننا نتوغل الآن في بلاد علم الفلك الاصيل .

تتوالى في الذهن ذكريات العلم والتاريخ . فهذه الارض المستوية القاحلة من يساري كانت يوما مسرحا لانبل المشاهد التي ورثناها عن الاقدمين . هنا انتهت حياة شاب روماني كان له من العمر احدى وثلاثين سنة ، وله علاقة بتاريخنا الفرنسي ، اعني به القيصر « يوليان »(٨) ، الذي نالته عبر الاجيال اقلام الكثيرين لانه حاول اعادة

٧ – موضع على الفرات دارت فيه رحى الحرب بين ارتحشتا الثاني واخيه فورش سنة ٤٠١ ق.م .

٨ – من اباطرة روما (٣٦١ – ٣٦٣) ولد سنة ٣٣١ وهو من اقرباء قسطنطين ، تربى على النصرانية لكنه عاد الى الوثنية وعمل على ترسيخ اقدامها ، لذا عرف بالجاحد، حارب الفرس ومات مقتولا وهو يردد : « غلبتني ايها الناصري » .

القديم الى قدمه بالرغم من كونه لم يكن يؤمن بذاك القديم . ان الناس الذين غفروا « لقسطنطين الكبير »(٩) زلاته ومعاصيه الكثيرة ، لم يرحموا « يوليان » المفكر وصاحب المبادي بسبب هفواته .. كم تذكرت هذا الرجل وأنا اطوف في ربوع بابل التي رات حملته الشهيرة ضد الفرس سنة ٣٦٣ ، والتي اعادت الى الاذهان حملات « الاسكندر الكبير »(١٠) وهرقليوس»(١١) ان حملته كادت ان تقضي على دولة الفرس لولا ان خرمته المنية في « مارنكا » بطعنة نجلاء اودت بحياة القائد الشاب المظفر . ويطيب لي ان اذكر كلماته الاخيرة التي اوردها » اميانوس مارشيللينوس«(١٢) وهي اسمى بكثير من الكلمات الاخيرة التي تقطر مرارة والتي قالها قبله بسبعة قرون الاسكندر في نفس المكان تقريبا . قال : « لا شيء يبكيني ، ولا اذكر ذنبا اقترفته، اكان في زمن منفاي، او بعد ان تسلمت مقاليد الحكم ، فقد اعتبرتها وديعة من الخالدين ،واعتزبائي حافظت على نقائها ، فحكمت بالعدل ، ولم اشن حربا الا بعد فحص ناضج ...»

مرنا بعدئذ امام خرائب «سيتاس وافامية» ، وامام « القادسية » وهي بلدة حديثة العهد نسبيا لانها ترجع الى زمن الخلفاء ، قال فيها « ابو الفداء» انها مشهورة بورع سكانها ، وعمل الزجاج وهذا الاهم في رايي(١٣) .

بدانا نرى الضفاف العامرة باشجار النخيل والبساتين ، ثم ظهر امامنا منظر عام لبغداد ، حتى وصل الكلك فتوقف عند مدخلها . فاخذت « قفة » وهي مدورة الشكل تصنع من الميدان وتطلى بالقار ، فانحدرت الى جسر القوارب ، وهناك نزلت .

توجهت مباشرة الى القنصلية الفرنسية حيث التقيت بصديق قديم ، زميلي الشاب النشط في البحر الاحمر السيد « بيليسيه » المعين حديثا هنا ، فما ان عرض علي استضافتي حتى قبلت في الحال .

٩ ـ امبراطور روماني (٣٠٦ ـ ٣٣٧) تنصر سنة ٣٢٣ .

١٠ـ الفاتح الكبير (القرن الرابع قبل الميلاد) الذي قهر الفرس .

١١ـ امبراطور بيزنطي (٦١٠ ـ ٦٤١) كسر شوكة الفرس واندحر في اليرموك .

١٢ـ مؤرخ لاتيني من ابناء القرن الرابع الميلادي .

١٣ـ قال ابو الفداء : « والقادسية ايضا قرية كبيرة في سامرا يعمل فيها الزجاج من الترتيب » تقويم البلدان ص٢٩٩ .

رحلة الى بابل

لم استطيع اخذ الباخرة التي تسافر بين بغداد والبصرة لظروف لامجال لذكرها . واذلم يكن لي ذلك الشوق للبقاء في مدينة الخلفاء والتمتع بعظمتها ، فاني قبلت بفرح اقتراح السيد « بيليسيه » القنصل الفرنسي في بغداد لزيارة اثار بابل مع مستثمار السيد « بيريسيه »

اعددنا العدة على وجه السرعة وانطلقنا صباح اليوم الثاني عشر من نيسان في قافلة قوامها نحو خمسة وعشرين رجلا فعبرنا جسر القوارب الذي يربط ضفتي دجلة، ومر موكبنا امام القهوتين الكبيرتين الواقعتين على راسي الجسر ، حيث يجلس عدد كبير من ذوي اللحى السود الجميلة .

اسرعنا في خطانا للتخلص من القسم الممل من المدينة الواقع على ضفة النهر اليمنى ، ونحو الساعة التاسعة دخلنا في سهل واسع يطلق عليه اسم (Magoouda) ومنظره الخالي من اثر الحياة يعطينا فكرة مسبقة لما عليه بابل .

ذكرت اعلاه اننا كنا نحو خمسة وعشرين نفراً ، ونعل القارىء يستفسر عن سبب هذا العدد الكبير فاقول له : ان الحكومة البائسة التي تحكم هذه المناطق الجميلة لم تستطع ان تمنحها الامن الذي هي باامس الحاجة اليه . فاسياد منطقة بابل في الواقع هم بعض الكالى ، الذين تعودوا على النهب وعندما يشاؤون يتقدمون الى ضواحي بغداد ليجمعوا ما يحتاجون اليه . ولقد حدث منذ سنوات انهم وضعوا في مازق لايحسد عليه ذاك المشير البطل الذي دوخ الدانوب اي المشير عمر باشا(١٤) . ويذكر ان الذي انقذ شرف الراية التركية في ذلك الظرف الصعب كان مغامراً جزائرياً اسمه « بو معزى » الذي كان اسيرنا سابقاً . ولم تتغير الاحوال العامة في الوقت الحاضر ، والدليل على ذلك ان المشير الحالي الذائع الصيت « نامق باشا »(١٥) لم يشا تلبية طلبنا لزيارة الاثار وان يتحمل مسؤوليتنا الا بشرط ان يرافقنا سبعة عشر رجلا لحراستنا . هذا الموكب الجميل الذي لو شاهده « فرومنتان » او

١٤ـ من ولاة بغداد (١٨٥٧ ـ ١٨٥٩) لقبه « سردار اكرم»، اما الاشارة الى بطولته ففي حرب القرم .

١٥ـ محمد نامق باشا تسنم ولاية بغداد مرتين (١٨٥٠ ـ ١٨٥١) ثم (١٨٦١ ـ ١٨٦٧) خلال رحلة لجان .

« شاسيرو »(١٦) لصفقا له ، كان يقتطع الطريق بابهة ، بينما كانت نصال الرماح العربيـة تلمع في ضوء الشمس ، كان المنظر اشبه مايكون بموكب البارونات القدماء وهم في طريقهم الى معركـة تلبية لدعوة ملك فرنسا . اما بقية افراد الموكب فكانوا من بطانة القنصلية والخدم ، ويجب الا نغفل عن ذكر اسم رجل مستعد لتلبية كل الاعمال والحاجات وهو « سيتو ميخائيل » وكيل المبعث الكاثوليكي . فهو تاجر آثار وخبير بالماديات ، وجدير بالذكر ان تجارة الماديات في بغداد مربحة ورائجة . .

بعد ان تركنا من يسارنا اكمة منفردة تسمى « ابو رووس » والاسم يشير الى حادث دموي واقتتال . ثم عبرنا في الدوبة فرعا واسعا مـن فروع دجلة يسمى « الخر » ظهر لنا من جديد نهر دجلة بسبب واحدة من تعرجاته العـديدة ، فهذه التعرجات تبدأ في بغداد لتنتهي في الكوت والعمارة . ولهذا النهر منظر رائع في هذه البقعة بعكس مايظهر في مواضع اخرى اذ نراه بائسا ، كما في موقع سلوقيا مثلا . فقد راينا عند ضفته اليسرى غابة خضراء جميلة بعيدة المدى ، يزيد من جمالها اننا كنا نسير في ارض جرداء .

ان التربة بحد ذاتها ليست جدباء رغم الطبقة البيضاء التي تكسوها فهذه الارض متكونة مـن ترسبات غرينية لها قدرة على العطاء والخصب كارض الفلاندر في فرنسا . وكلما حاول الفلاح معالجة الارض وبنى ناعورا لتسقي فان ارضه تاتي بمحصول وافر .

لقد ملت اعيننا من انعكاس اشعة الشمس على الارض الماحلة ولذا فانها تشعر بارتياح كبير في الارض الواسعة المزروعة بالقمح في المنحدرات القريبة من النهر وتسمى « شط العتيقة » . ان هذه التسمية تجذب انتباهي . فالاخذ باهتمام الاثر الغريب الذي تركه النهر بتبديل مجراه عبر التاريخ ، لكني استغربت ان الارض مع جهتـي المنحدرات كانت متساوية ، فما ان تركنا شط العتيقة حتى ظهر لنا مجرى قناة اخرى جـف ماؤها كانت تصل قديما الى جهة « بقرقوف » ، هذا مثال واحد من مئات القنوات التي كانت تغطي منطقة بابل ، وساعود الى الكلام عنها ثانية .

ساختصر الكلام عن هذه الطريق المملة فقد

١٦ـ رسامان فرنسيان في القرن الماضي .

وصفها قبلي نيبور وريتش وفريزر(١٧) . فبعد ساعتين ونصف من سير حثيث توقفنا للغداء عند « خان اسـد » وحالفنا الحظ اذ وجدنا غرفة صغيرة في الطابق الاول ، هي الغرفة الوحيدة في الخان فنزلنا بها .

تتواجد الخانات على هذه الطريق بين مرحلة واخرى ، ويبعد الواحد عن الاخر مسيرة ساعتين او نحو ذلك ، شيد بعضها اناس اتقياء غايتهم تشـجيع ابناء نحلتهم لزيـارة المدن المقدسـة اي كربلاء ومشهد علي ، وشيد القسم الآخر اناس غايتهم الربح ، فالطريق التي نسلكها مطروقة جدا ولاخوف على « انخانجية » من البطالة ، لكثـرة العابرين .

تتشابه هذه الخانات ، وهي اقرب مايكون الى تكنة مربعة ، تحتوي على اسطبلات جميلـة ومريحة جدا تتسع لمئة وستين الى مئتي حصان على ما اعتقد ، وفي بعضها جناح صغير فوق سطح الاسطبل للسكنى والمراقبة عند الحاجة ، يتسع لاثني عشر مسافرا الى خمسة عشـر . لكـن المسافرين يفضلون عادة النوم بملابسهم في الحوش او على السطوح في العراء .

قد يستغرب من ان هذه الابنية المفيدة تهتم بالحيوانات اكثر من اهتمامها بالانسان ، لكن العرب يستغربون لو كانت بعكس ذلك فانسان الشـرق عادة يفكر بعد يوم من العمل المضني او السـير الحثيث تحت اشعة شمس حارقة ، وان اليوم التالي لن يكون اسهل منه ، انه يفكر بالحيـوان المفيد الذي خدمه اكثر مما يفكر بنفسه ، فهو قنوع بالقليل . انيشخصيا اعرف بعض الفرنسيين الذين يفكرون على طريقـة هـؤلاء الاعراب ابناء اسماعيل .

تناولنا طعام الافطار وكان جيدا ، وقدم اهل المنطقة يحملون بعض العاديات فاقتنيت قطعة غريبة هي « محكة »(١٨) من الهيصيم لم اكن اتوقع ان اجد مثلها في بابل ، وكنت قد اشتريت قطعة شبيهة لكن فخارية في اسوان قبل خمسـة اعوام وكانت من صنع فلاح مصري قيل لي ان اسرته تتوارث عملها منذ قرون .. وبينما كان البائع

١٧ـ ثلاثة من الرحالين الذين زاروا العراق ، وقـد نقلت رحلة الاول والثالث الى العربية اما ريتش فلم يترجم كتابه على حد علمنا .

١٨ـ تستعمل في الحمام لحك الجسم القدمين .

يدس النقود في جيبه ، اذا بشخص آخر يهرع الينا مدعياً ان له تحفة ، وما ان عرضها حتى انفجرت وزميلي ضحكا ، لقد كانت قطعة من الخزف تستعمل عادة كمحبرة او قاعدة لعيدان الثقاب ! ولقد فتح الاعرابي فاه مستغربا جهل الافرنج الذين يبذلون القروش والاموال من اجل آجرة ، ويرفضون تحفة كالتي يعرضها ..

بعد ساعة من الاستراحة تابعنا سيرنا ، فمررنا بمدساعة وربع بموضع قناة عريضة بابسة تتجه من الفرات الى دجلة، وهي موازية لسابقتها، وبقناة ثالثة احدث عهدا تجري فيها المياه . فحييت باجلال هذه البقايا من عمل الاجيال السابقة ورأيت فيها حسب اعتقادي اثر النهر الشهير المدعو « نهر ملكا » الذي حفره ملوك بابل ، اذ ان « بليني »(١٩) قال ان احد حكام بابل امر بحفره ليأتي بمياه الفرات المتلاطمة الى دجلة خاصة في موسم الفيضانات وفكر « الاسكندر » بتجديده كما عمل « تراجان »(٢٠) و « سفيريوس »(٢١) على اعادة حفره حتى اصبح صالحا للملاحة وتسيير المراكب . وعندما قام « يوليان » بحملته على بابل وجده على حد قول اميانوس مارشيللنيوس قليل الماء وفيه حجارة كبيرة . اني شخصيا لا اقتنع بهذا القول اذ لا وجود للحجارة حتى الصغيرة منها في منطقة بابل لاني شاهدت الموضع شخصيا. واضاف المؤرخ الروماني انه اعاد حفر النهر المطمور واستعمله لنقل جيشه بالقوارب الى دجلة ..

هذا السهل الصحراوي الفسيح ، حيث لا اثر لحياة او نبات ، والذي يبدا من « شط العتيقة » الى هنا ، هو ارض بابل تلك التي كانت تنتج على عهد الفرس ثلث محاصيل الدولة الزراعية. هذا السهل الرسوبي الرائع كان في وقت ماخصبا جزيل العطاء لا يقل عن اوكرانيا حاليا او لومبارديا او بلجيكا . بحيث ان « هيرودوتس » قال من هذه البقعة انها اخصب ارض على عهده في انتاج الحبوب ، فالقمح على حد قوله يعطي الواحد مئتين في الاقل ويصل الى ثلثمائة في سني الخير، ويصل عرض اوراق الحنطة والشعير الى اربع اصابع ، ويضيف المؤرخ الكبير ببراءة قائلا : « اما حجم ساق الدخن او السمسم فلن اذكر شيئا، رغم اطلاعي عليهما، اذ اعتبر من الكاذبين»! كان عليه الايخاف من ذكر الامور ، لاننا نعلم ان القمح عندنا يعطي كمعدل الواحد خمسة عشر ، لكن الجميع يعرفون ان الاختيارات الاخيرة على القمح المصري المسمى « قمح المومياء » اعطى الواحد مئتين وعشرين .

اما الاشجار المثمرة فلم تنجح ، ماعدا النخيل الذي ينمو في انحاء السهل كله ، ويزود البابليين بالمشروبات المتنوعة والاغذية : فمن النخلة الخمر والخل والدبس ، ومنه التمر ... اما الكرمة فلم تظهر الا في فترة متاخرة ، انها من آثار حملة الاسكندر .

كانت تربية الماشية مهملة كما هي عليه الآن، ولكن هناك تجارة مربحة اخرى تخص الخيل ، لان زرائب الملك وحدها كانت تضم ٨٠٠ حصانا و ١٦٠٠٠ فرسا ، ماعدا خيل الركوب ، كما كان هناك اهتمام خاص لكلاب الصيد الملكية ، وهي من الجنس الهندي القوي ، التي باستطاعتها مجابهة الاسود . لقد خصصت اربع قرى كبيرة لتقوم باود هذه الكلاب ولقاء ذلك تعفى من دفع الضرائب » .

الاهتمام بالجداول

يعم الجفاف الطبيعي في هذه المنطقة ، فالمطر لا يهطل هناك ، فما العمل للتعويض عن الجفاف ، خاصة وان القنوات غير موجودة بجانب الانهر الكبرى .ان اهل « كلدية » القدماء وجدوا الحل منذ عهد سحيق لترويج تجارتهم فحفروا القنوات العريضة بين دجلة والفرات وديالى في جميع الاتجاهات ، وتنتهي بعض تلك القنوات في السهول دون ان تصب في نهر آخر كانت تلك القنوات شرايين الحياة للبلاد تتفرع الى جداول كثيرة في مختلف الاتجاهات . وبعض القنوات الكبيرة كانت صالحة للملاحة ، فتمخر المراكب فيها محملة بالحنطة . ولقد ذكر « زينيفون »(٢٢) اسم اربع منها. ومن تلك القنوات الصالحة للملاحة الى اليوم « قناة الصقلاوية » ويبلغ عرضها اربعين قدما ، وسرعة مجراها اربعة اميال في الساعة .

١٩- يقصد به بليني الكبير (٢٣ - ٧٩ م) مؤرخ وسياسي روماني ، له كتاب « التاريخ الطبيعي » في مجلدات عديدة .

٢٠- امبراطور روماني (٩٨-١١٧م) حارب الفرس في السنوات ١٠١ - ١٠٥ م .

٢١- امبراطور روماني (٢٠٨ - ٢٢٥م) .

٢٢- مؤرخ يوناني (٤٢٧ - ٣٥٥ ق.م) ومقاتل شجاع ، له كتاب « الصعود » ، و « تهذيب فورش » وهو كتاب تاريخي اخلاقي .

ان نهر « ديالى » الذي ذكرته قبل قليل هو نهر « جندا » القديم ، وهذا الاسم يدعوني لان اقول كلمتي عن قصة وردت في الادب القديم ويعرفها كل طالب ادب . وخلاصة القصة ان « قورش »(٢٢) في حملته على بابل اضطر الى عبور « جندا »وكانت مياهه هائجة فانزلق حصانه وسقط ، فاستولى الغضب عليه ، واقسم ان يمزق النهر ويغرقه الى جداول وترع فلا يخيف طفلا من الاطفال ؛ فتوقفت الحملة ، وامر جيشه بالشروع في العمل واحالة النهر الى ترع لاشان لها ، وهكذا انقضى الصيف ولم تتم الحملة على بابل ! وقد يضيق استاذ الادب عند شرحه هذه القصة لتلاميذه ؛ انه من الخطر على الانسان الاستسلام لنزوات الغضب في امور تخص الطبيعة .

يطيب لي ان استسلم للخيال قليلا ، وكاني الجول في ربوع بابل على عهد سميراميس يوم كانت بابل في اوج مجدها وعز غناها ؛ فارى على جانبي الطريق الذي تسير عليه عربات ثقيلة ، ارضا تمتد الى ما لا نهاية ؛ عامرة بالزروع كانها أرض « بيوس »(٢٤) وقد انتقلت الى جوالاندلس ، وارى خطوط النخيل السامقة هنا وهناك وفي ظلالها قرى عامرة بالسكان في بيوت دائرية مقببة مشيدة بخشب النخيل وسعفه ؛ عالية الابواب ، مطلية بالقار ؛ وهذه مساكن الفلاحين واصحاب المهن . اما بيوت الاسياد والهياكل فتكون مربعة الشكل مشيدة بالآجر والطاباق مطلية بطبقة تخينة من الصبغ الاخضر الغامق .. وفي الجداول تسير القوارب المدورة المصنوعة من الجلد او من القصب الملتحم بطبقة سميكة من القار ؛ وهي محملة بالقمح ؛ تتهادى مع مجرى الماء لتصل الى غايتها المقررة فتفرغ حمولتها .. وفي كل مكان نشاط دؤوب وحياة ؛ فلا وجود لصحراء قاحلة ، بل كثافة عالية بالسكان خاصة على ضفاف الجداول كالنيل وشط ابراهيم .. هذا هو الماضي ، اما الحاضر فيفصح عن ذاته ببادية قاحلة واسعة لا حد لها ، تتخللها اكمات وخرائب ومجاري جداول جف ماؤها في كل الجهات ، وقرى مهملة على ضفاف الانهر يسكنها فلاحون ، وخيام سود تتناثر هنا وهناك بعضها لعشائر المنتفق وغيرها لشمر وبني لام وجربوع والزبيد ، وكلهم دون تمييز في حالة بؤس ، هذا كل ما تبقى كاثر لسمير اميس .

استمرت حالة اليسر هذه على عهد الخلفاء وعمت ارجاء البلاد . ولكن ما ان وطات اقدام الاتراك هذه البلاد حتى زال عنها الخير ، ولذا يردد الشرقي هذا المثل : حيث يمر التركي لا يقوم نبت! فلم تعد المياه تجري في القنوات ، وهرب الفلاحون خوفا من البدو الذين لا يهابون الا الحكومة القوية، حتى نهر الفرات الذي ترك على طبيعته ادى الى تكوين مستنقعات واهوار موبؤة بفعل مياه الفيضانات السنوية .

اهتز الباب العالي عندما بلغه ان العرب يسيطرون على ارجاء العراق ، لانه يعتبر العراق ملكا له ، فاصدر اوامره الى امراء الجيش في الحدود الجنوبية ـ الشرقية ليهرعوا الى هناك ويخمدوا الثورة ويرسلوا الشيوخ مكبلين بالحديد. وقد قيل لي ان البواشية استعدوا لهذه الحملة بجيش نظامي قوي ، لكن النتيجة كانت خسارة فادحة امام انقضاض اهل المنتفق وعرب شمر وحلفائهم ، فاضطروا في آخر الامر ان يكتبوا الى اسطنبول قائلين : « لا تامرونا رجاء ان نقيد عصافير السماء ونقودها اليكم »(٢٥) .

ان « نامق باشا » والي بغداد الحالي وعربستان كلها (هكذا يطلق عادة على باشوية بغداد والموصل لسكنى العرب فيها ! . ذاك البطل المعروف الذي ذاع صيته على اثر احداث جدة(٢٦) ؛ هو في الواقع اداري جيد . ويتفق الاصدقاء والاعداء بشانه في نقطة واحدة وهي انه لا يسرق ، وهذه مزية عظيمة لا تنكر ، فمن الصعوبة بمكان ان نجد اربعة ولاة لا يدخلون ضمن عداد العراق المشهورين ؛ لكنه يشوه هذه المزية الحقيقية في امرين : بغضه الشديد للاوربيين ورغبته الجامحة بجمع الضرائب(٢٧) . اراد اصلاح الاراضي لا لتحسين احوال الفلاحين ولكن من اجل مزيد من الضرائب والدخل الحكومي ، فراودته فكرة تطهير القنوات البابلية واعادة الحياة اليها ؛ فاستدعى لهذا الغرض مهندسين مصريين لهم بعض الخبرة في علم الري الصعب ، اكتسبوها من

٢٢ـ ابن داريوس ، قتل سنة ٤٠١ ق.م . في حربه ضد اخيه ارتحشتا .

٢٤ـ منطقة فرنسية خصبة جدا غنية بزراعة القمح .

٢٥ـ تاريخ الشاوي : ص ٧١ و ٧٣ (مجلة آفاق عربية ٦ ـ ١٩٨١) .

٢٦ـ تفاصيلها في : تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك (القاهرة ١٩١٢) ٢٨٤ .

٢٧ـ العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ٧ : ١٣٥ .

عملهم في دلتا النيل ، فقدم « الافندية » ودرسوا الموضوع ووضعوا الخطط والخرائط . ولكن لسوء الحظ كان يجب عرض هذه الخطط امام المجلس الاعلى للولاية . وهذه المجالس على عكس ما هي في بلادنا حيث تضم الكفوئين في مختلف المجالات ، بينما تضم المجالس التركية في معظم الاحيان جماعة من الافاقين والجهلة احتلوا الكراسي بفضل اموالهم : من تجار نصارى مذمومين ، وملاكين مسلمين سكارى وكسالى . ولا هم لهم الا تعويض حضورهم المجاني الى المجلس بمحاولة تخفيض الضرائب عن انفسهم ؛ واقتسام بعض الارباح الناتجة عن المضاربات في تقدير الضرائب ، والتوسط لقضاء حاجات الاخرين لقاء هدايا ومكاسب . واذ لم يقدم الافندية « بخشيشا » للسادة الموقرين اعضاء المجلس فقد اعلنوا صعوبة تحقيق هذه الخطط ووضعت على الرف ، ولم يحصل الافندية على فائدة بل اشبعوا انتقادا فعادوا الى القاهرة بخفي حنين .

حاول « نامق » بعد هذا الحادث ، التفاوض مع مهندس هولندي قدير ، لكن المهندس طلب مبلغ عشرين الف فرنك لقاء العمل والسفر المزعج والتنقل المتعب ، فوجد الباشا هذا المبلغ كبيرا . ان القاريء يلاحظ بان مردود المشروع خلال عشرين سنة سيؤدي الى نمو السكان الى خمسين الف وزيادة في المحاصيل فوق ما يجنى اليوم بنحو عشرة ملايين ، لكن الوالي لا يفهم هذا الامر جيدا .

ان الدولة ترسل بعض الطلاب للدراسة في معاهد فرنسا والمانيا ، وتتحمل من اجلهم نفقات طائلة ، لكن هؤلاء السادة ما ان يعودوا الى بلادهم فانهم لا يفعلون سوى تدخين الشبوق والاكثار من النساء القفقاسيات باسعار معقولة في حريمهم ، ويحاولون ايجاد ثغرات في خزانة الضرائب تتسع لمرور القمر نفسه ! ان دولة كهذه عليها الا تعتبر مجيء مهندسين اجانب للعمل في هذا المحيط باهظ التكاليف .

★

توقفنا في خان النص مدة عشر دقائق كافية لاحتساء القهوة ، ووصلنا الى الاسكندرية قبيل الغروب . وكان الطباخ « ديميتري » قد سبقنا الى هناك فاعد لنا ما لذ وطاب . لكن المشكلة كانت في ايجاد محل للنوم ؛ فالمناخ بارد جدا ولا يمكن النوم على السطوح . اخيرا وجدنا حنيات كبيرة عريضة يبلغ عمق الواحدة نحو مترين ونصف ضمن بناء الجدران في ظهر الاسطبل فاخترناها كموضع المبيت . ولحسن الحظ كان السيد « بيربسيه » قد جلب اسرة حديدية رغم معارضتنا له اذ اعتبرنا ذلك نوعا من الترف لا يليق بالسائح الاصيل ، لكنه الآن استحق الشكر والثناء لبعد نظره ، وبعد العشاء اسرع كل منا الى الفراش ليستسلم الى نعاس لذيذ ، دون ان نعير اهمية الى ملايين المخلوقات الصغيرة التي تراود المكان ...

وعندما استيقظنا صباح اليوم التالي لنستمر في السفر فنصل الى الخان التالي قبل ازدياد الحر ، رايت في الحنية التالية وهي غير بعيدة عني انها استضافت في الليلة السابقة جثة في طريقها الى كربلاء، الارض التي يقدسها المسلمون .. ففي تلك البقعة استشهد رجلان عظيمان في الاسلام هما علي والحسين، ويفضل بعض المسلمين، خاصة الاغنياء منهم ، الدفن في هذه الارض ، فترسل جثث موتاهم من ابعد المناطق اليها . فليس من المستغرب ان ترى على طول الطريق من بغداد الى الفرات جمالا وبغالا محملة باقفاص خاصة لنقل الجثث المسجاة على فراش من الاغصان والاوراق .

كانت الساعة قد قاربت الثامنة عندما ظهر في الافق نخيل « خان المحاويل » ، فسررت جدا لامرين : اولهما وصولي الى غاية رحلتي لان منطقة بابل الاثرية تبدا من هناك ، والثانية اني سأتناول الغداء في الخان ! وفي طريقي الى هناك استعدت في ذاكرتي شيئا من اقوال الاقدمين في بابل .

كانت مدينة « سمير اميس » مربعة الشكل، يبلغ طول محيطها ١٥ ـ ١٦ فرسخا(٢٨) ، ويحيط بالسور خندق عريض وعميق مليء بالماء . وكان ارتفاع السور ٨٠ قدما ، وكذلك عرضه ، وفيه صفان من الابراج المزدوجة عددها ٢٥٠ وهي متقابلة وبينهما مسافة كافية لمرور العربات التي تجرها اربعة جياد . والاسوار مشيدة بالطابوق يتخلله الاسفلت ، وبعد كل صفوف ثلاثية من الطابق هناك حصيرة ملطخة بالقار الحار . وللسور مئة باب من النحاس ، وعضادات الباب واسكفانه من النحاس ايضا . وتمتد حول السور في بعض جهاته انهار كحصانة طبيعية ولم تكن هذه سورة بالطبع .

حافظت المدينة على تصميمها المربع فتمتن السور ، لان طرقها كانت مستقيمة ، وتتقاطع

٢٨ـ Lieue قياس قديم للمسافة يبلغ نحو ٤ كم .

بزوايا حادة بطرق اخرى تتجه الى ابواب المدينة المار ذكرها ، او الى الابواب المفتوحة في حواجز الارصفة التي كانت موازية لتعرجات نهر الفرات، وتمتد نحو سبعة فراسخ ؛ وكانت مشيدة بالآجر والقار فوق عقادات متينة تعمل على تقليل اندفاع المياه خاصة في مواسم الفيضانات الربيعية .

لم تكن المساحة الكبيرة داخل الاسوار والتي تبلغ ١٦ فرسخا مربعا كما نوهت ، عامرة كلها بالدور ، فالمساحة المستغلة للبناء كانت تغطي نحو ٩٠ غلوة(٢٩) مربعة ، فحجم المدينة اذا كان كبيرا . اما الابنية فلم تكن متلاصقة وكانت تتالف من ثلاثة طوابق او اربعة . ولم يكن القسم القريب من السور ملتصقا به بل منفصلا بمساحة واسعة عرضها مئة متر تركت للعمليات العسكرية في حالة الدفاع عن المدينة .

ان عدم التوازن بين المساحة الكلية وبين تحصيناتها يعتبر من الامور العادية في المدن الشرقية ، وهذا ما لاحظته في الموصل وبغداد والبصرة واورفا ، إذ تترك مساحة احتياطية تستغل للزراعة داخل الاسوار ويستفاد منها في حالة الحصار الطويل ؛ وهذه الخاطرة ليست من بنات افكاري بل نقلتها عن كونيتس كورسيوس(٣٠) على الرغم من عدم اقتناعي بها ، لان اهراء سميراميس ومخازنها كانت كافية لامداد المدينة باحتياجاتها .

كان القسم المأهول بالسكان محاطا بثلاثة اسوار ، يبلغ قطر الاول نحو اثني عشر كيلو مترا ، والثاني ثمانية ، والثالث اربعة فقط . وكان هذا الاخير مزينا بصور الحيوانات ومناظر الفنص البارزة . كان بالامكان رؤية سميراميس تقاتل فهدا ، ونينوس يصرع اسدا . وكانت تغطي السور الثاني المبني بالاجر صور كهذه ، حسنة الصنع كانها حية حسب قول هيرودوتس .

اما السور الثالث الذي كانت القلعة من ضمنه ، ولها ثلاثة ابواب ، وفيها غرف من النحاس يتم فتحها وغلقها بالة خاصة ، وهذه القلعة هي المكان المفضل عند سميراميس لانها تطل على النهر وتتصل بالقصر الغربي بجسر ونفق في آن واحد .

٢٩- Stade قياس قديم عند اليونانيين ، قال « لجان» طول ضلع الغلوة ١٦٠ مترا .

٣٠- مؤرخ لاتيني من ابناء القرن الاول للميلاد له كتاب « تاريخ الاسكندر » سلس العبارة ، يعتمد على الخيال اكثر من الواقع .

وكان الجسر طويلا يقوم على ركائز تبعد الواحدة عن الاخرى مسافة اثني عشر قدما ويمتد عمقها في الارض بعيدا ، وهي مشيدة باحجار مرتبطة بالحديد ومحشوة برصاص مصهور ، اما الحجارة المعرضة للمياه فقد كانت على شكل زاوية حادة . وعرض الجسر ٣٠ قدما وارضيته من خشب الارز او السرو مصفوفة على جذوع نخيل عظيمة . اما النفق فهو نوع من الترف الذي ارادته سميراميس عندما شيدت الحوض الذي سأتكلم عنه بعد قليل. لقد حولوا مجرى الفرات موقتا ؛ ولما جف مجراه الطبيعي امرت الملكة بحفر ممر يبلغ ارتفاعه ١٢ قدما وعرضه ١٥ قدما ، ويقال ان اهل بابل اكملوا العمل في سبعة ايام .

هذه هي الملامح الاساسية لما كانت عليه ملكة الشرق في اوج مجدها ، قبل ظهور الفرس الذين دمروا اثارها البديعة ونهبوا هياكلها، فامست بابل مدينة عادية وفقدت مكانتها كسيدة المدن .

ان ما يدهش حقا في الوصف الذي تركه الاقدمون عن المدينة ، ذاك التوفيق الرائع الذي توصل اليه الكلدانيون بين عظمة الاعمال وفائدتها، اذ لانجد له مثيلا وعلى نفس المستوى في الحضارات الاخرى . فاعمالهم العظيمة من اسوار وقنوات ومراصد وطرق وجسور والبحيرات الاصطناعية كانت من اجل المنفعة العامة قبل كل شيء . انني اظن ان الجنائن المعلقة التي سنأتي على ذكرها هي ليست من عمل سميراميس كما يقال عادة ، بل في الحقيقة مشروع طاغية عاشق ضاع اسمه على مر الاجيال .

وبينما كنت استعيد هذه الذكريات والاخبار التي تركها لنا الاقدمون ، وصلنا الى الخان ، فاسرعت الى السطح لالقي نظرة عامة على الاطلال .

من المستحيل ان يدرك القاريء انطباعي عندما القيت النظرة الاولى على الاطلال ، اذ يجب ان يختبر بنفسه هذا الشعور . هناك في اوربا مدن الت الى الخراب ، ولنا اثارنا الجليلة ، لكن النشاط العارم الذي نحياه ، ونمطنا في الحياة اذ اننا نسرع الى سد الفراغات التي يتركها الموت ، هذا النمط اثر حتى في آثارنا ، فالعمارات الكبيرة التي هي من مقتضيات الحياة الحديثة جعلت الاثار في الظل . ان اشهر مدننا البائدة هي بالتاكيد « لاسيديمون »(٣١) وهي ليست مندثرة تماما في ظلال الغار الوردي ؛

٣١- يريد مدينة اسبارطة .

وتستيقظ احيانا على صوت ريح الشمال وهدير نهر « ايورنياس »(٢٢) فلا تشعر بالوحشة عندما ياتيها العمدة بلباسه الرسمي المزركش . هناك يشعر المرء بروعة القدم ، ولكن ـ وهذا انطباعي الشخصي ـ لاترتفع معنوياته ولا يتسامى الى العلى كما يشعر وهو يتأمل ذاك الصمت العميق والرهبة السامية في تدمر وبعلبك وممفيس وطيسفون وبابل .

كنت اتوقع ، بعد اطلاعي على ما كتبه بعض الرحالين ، اني ساري اكاما ملتوية ومشوشة من الخرائب . بينما كان المنظر الذي امتد امامي على عكس ذلك . انه بسيط ، وخطوطه الكبيرة واضحة ، وسهل الاستيعاب . فامامي مباشرة تمتد ستة خطوط متوازية باتجاه شرق ـ جنوب ـ شرق ، تشير بلا شك الى قنوات ثلاث ، واحدة حديثة واثنتان قديمتان ، وبين هاتين القناتين حفرة واسعة اعتبرتها من النظرة الاولى خندق المدينة الشمالي ، وبين القناة الحديثة واحدى القناتين القديمتين مسافة طويلة قدرتها بنحو اربعمائة « ار »(٢٣) وفيها قطع كثيرة من الآجر والفخار . ان لم تكن هذه المساحة من المدينة نفسها ، فهي بلا شك كانت منطقة سكنية مهمة .

ويمتد ما وراء الاقنية سهل واسع ابيض اللون فيه ادغال متفرقة ، ولا تزال معالم الاقنية القديمة اليابسة ظاهرة ، فلونها اكثر بياضا من الارض المحيطة بها ، وتمتد على مدى البصر ... وهنا وهناك اكمات وتلال « كابي رويبة » و « الحسين » تمتد بعيدا في الافق لتتلاشى تدريجيا . وهناك بين الاكام واحدة لونها احمر يميل الى البنفسجي . لها جوانب تكاد تكون مقطوعة عموديا تنتهي بقمة اشبه ما تكون بالتلال الصلصالية التي نشاهدها في كل خطوة في بلاد النوبة العليا . هذه هي بابل او قلعة بابل القديمة ، تمتد اطلالها خلف هذه الاكمة ، بينما يجري نهر الفرات بهدوء على بعد نصف ساعة منها غرب المحاويل فلا يظهر للعين من هنا ، لكن سلسلة النخيل الباسقة التي تشاهد في الافق البعيد تشير الى وجوده ، والى اليسار من القلعة توجد بعض اشجار النخيل في موقعين ، وتلان متقاربان يطلق على الاول اسم « تل الميمر » ويظن بعض الاثاريين انه كان زاوية المدينة الجنوبية ـ الشرقية ، والثاني « قبر الخياط » ويضم اثارا قديمة في اعتقادي .

لاشيء يستطيع ان يعبر عن العظمة الهادئة في هذه البقعة التي تضم في احشائها مدينة كانت عاصمة العالم المتحضر في عهدها . انها تختلف كثيرا عن الاثار الاخرى ، ففي نينوى مثلا تجد اثارا مرحة بسبب الاعشاب المختلفة والالوان التي تغطي الاكام والقصور المتهدمة والنهر يتهادى قربها كايام نمرود وشلمنصر . اما هنا فالارض واطئة ، بلورية ، كان اللعنة قد حلت عليها فلا اثر للحياة فيها ، حتى ضيوف البر كالارانب والغزلان التي تظهر على ضفاف دجلة لايطيب لها ان تاوى الى هذا المكان . ومهما امعنت النظر في الافق البعيد على امل رؤية خيمة سوداء لاعرابي فلا تجد . لقد تذكرت تلك اللعنات الشائنة التي نظمها شعب استمد من بؤسه حق صب جام غضبه على بابل(٢٤) .

هل يثير هذا المنظر في نفس الانسان ، الشعور بتفاهة الحياة ، وكيف تضمحل عظمة الانسان وتسقط الدول ، انا شخصيا لا استطيع ان اثبت هذا الشعور لاني اكن في داخلي اجلالا للاثار العظيمة ، كما اني مقتنع بان لكل حضارة علة لوجودها ولذا فهي تحتل مكانها الشرعي في تاريخ البشرية ، ومن هذه الزاوية انظر الى بابل . وقد يحتج احدهم قائلا بان لاقيمة لحضارة شعب لم تخلف كتابا او عملا فنيا . انا شخصيا ارفض هذا المنطق .

اننا ننظر بعين الرضا الى الحضارات التي تلبي متطلباتنا ورغباتنا كلها ، ولكن علينا ان نسأل انفسنا : ماهي في نهاية الامر قيمة التقدم الذي تمثله بعض الحضارات التي خلفت اكداسا من الورق ؟ كالصين المعاصرة ، والاغريق المتاخرين ، والعرب في فترة ما بعد الحروب الصليبية ؟ بل نحن ايضا في القرنين الاخرين ... علينا الا نحتقر حضارة الكلدانيين الصامتة ، الجدية ، الحقيقية . انه اول شعب في التاريخ حقق زراعة ناجحة لامثيل لها ، والزراعة اقوى دعامة للدولة الكبيرة . وخلق علمين مهمين وبز فيهما ، هما علم الفلك وعلم الطب . يكفي ذلك فخرا لهذا الشعب واوانه لم يكتب المجلدات ... ولم يشيد الاهرامات التي لافائدة فيها .

٢٢ـ اسم النهر الذي يمر بمدينة اسبارطة .
٢٣ـ القياس للمساحة ويساوي ١٠٠ مترا مربعا .
٢٤ـ يقصد باليهود ، وبالنصوص الواردة في سفر اشعيا وارميا ، وكلها حقد على بابل .

الدخـول الـى الآثـــار

لم يكـن اهتمام رفاق السفر منصبا علـــى استعادة ذكريات سميراميس بقدر ما هو في الغداء ؛ فلكل شيء وقته ، والساعة ساعة طعام لذا انصرفوا الى تناوله . وبعد ذلك امتطينا الجياد وعبرنـــا مجاري القنوات الثلاث لتدخل الى موقع بابل .

ان الخندق الواسع الذي نوهت به وقلت انه خندق المدينة من جهة الشمال ؛ ولكن بعـد ان تاملت الموضع جيدا لمعت في ذهني فكرة اخرى ؛ وهي ان هذا خزان يمتد الى البحيرة (وهي يابسة حاليا لكن الاصداف تشير اليها) التي ذكر بعضهم ان سمير اميس امرت بحفره ليستوعب مياه الفرات الفائضة ، وقال آخرون ان « نيتوكرس » امـرت بحفره(٣٥) . وعندما حاصر تورش مدينة بابل امر بحبس الفرات وتوجيه مياهه الى هذا الخـزان او البحيرة ، كما امر بحفر قناة اخرى وجهها الى حصون المدينة لتحاصرها المياه من الخـارج ، افيكون خندق المحاويل الكبير من بقايا هذه القناة ؟ اني ابسط الفكرة دون ان اؤكدها ، فهذا ديدني ليس للمرة الاولى ولا الاخيرة .

دخلنا الى السهل الذي كما قلت انه ابيض اللون ، فهب علينا هواء حار ، وامضينا هنـــاك نحو ساعتين والارض المشبعة بالنترات تلفحنـــا بانفاسها . ان سرورنا كهواة للاثار لم يتحقق في موقع اثري كما تحقق في بابل ، لاننا تمتعنا بمنظر الابنية المهيبة التي ظهرت للوجود بفضل تنقيبات السيدين « ريتش » و « فرزنل » وغيرهما . ان مواصلة عمليات التنقيب سيساعد بالتاكيد على اعادة المخطط المفصل للقلعة بعد ان تاكدنا من وجود المدينة في هذا الموقع . يطلق على التل في معظم الرحلات اسم « المجلبة » اي المقلوبة ، وهو الاسم السائد هناك ، ولو ان بعض الربفيين ذكروا اسـم بابل لكن اعتقد انهم سمعوه من المنقبين الانكليـز في الثلاثين سنة الاخيرة .

ان خرائب قلعة بابل هي على شكل مستطيل يبلغ محيطه نحو ٥٢٠ مترا وهي متوجهـــة الى الجهات الاربع ، وليس من المستبعد ان ما امامنا لا يمثل التخطيط العام للقلعة القديمة (او للقصر ان شئنا) اذ قد تكون الابنية الخارجية مندثـــرة كليا بفعل الطبيعة والانسان معا .

٣٥ـ اسم ملكة حكمت بابل بعد سمير اميس كما اخبرنـــا هيرودوتس . انظر : طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص ٥٠٨ و ٥٥١ .

لم يدخل الى بابل احد بعد جيوش تورش ، اللهم بعض البنائين المسالمين من اهـــل الحلة اذ وجدوا فيها مقاما هائلا للاجر . ويذكر « كيربورتر » في هذا الصدد انه لم يجد كتابة واحدة كاملة في بابل ، وكنت اكثر حظا منه لاني عثرت على رقم مسمارية كثيرة .

اسطورة محلية

هناك اسطورة محلية تتعلق ببابل، يقولون ان الله سبحانه وتعالى ارسل هنا ملاكين طاهرين هما هاروت وماروت ، وطاب لهما ان يفعلا امرا لابـد ان يتم في الشرق ، وهو انهما وقعا في حب امـراة متزوجة شريفة ، واستطاعت ان تلتقط من عشيقيها الاحمقين ـ كشباب باريس الذين يتظاهرون بالطهر ـ كلمة السر الضرورية للدخول الى الجنة ، فما ان عرفتها حتى حلقت الى العلاء تاركة الملاكـــين المندهشين وقد سخرت بهما ، ولما عادا الى رشدهما عرفا بعد فوات الاوان بفظاعة الذنب الذي فكـــرا باقترافه . فذهبا ليقرا به امام الباري تعالى ، فرق قلبه لتوبتهما ، ولم يامر بادانتهما بل امرهمـــا بالتوبة النصوح وحجزهما في بئر خفيـــة ببابل ، معلقين من حواجب اعينهما الى يوم الدين(٣٦) .

★

تركنا التل وهبطنا باتجاه الفرات لنـريح اعيننا التي ملت من منظر السهل الترابي ، فالنهر رائع حقا .. وضفتاه اروع ما تكون ، خاصـــة ضفته اليمنى اذ هي اوطأ قليلا فالمياه عندها اوفر لذا انتشرت البساتين الخضراء الممتدة في ظـلال النخيل واشجار الرمان المزهرة، وبين مسافة واخرى ترى النواعير البدائية يحركها حصانان هزيلان لرفع القرب الجلدية الطويلة بتلك الطريقة الغريبة. هناك مزارع متناثرة ، وقريتان عربيتـــان مسورتان تظهران بين النخيل ، هذا هو المنظر الجميل على خطوات قليلة من المدينة الصامتة المهجورة .

غادرت قافلتنا ضفاف النهر ، ودخلت في طريق عريض بين صفين من النخيل الكثيف المسور بجدار متهدم في معظم اطرافه . واذا بموكب كبير العدد يواجهنا في وسط الطريق ، (يليق بريشة

٣٦ـ لهاروت وماروت اشاره في سورة البقرة : الاية ١٠٢ ، وقد شرحها الطبري في تفسيره . انظر ايضا : سيد محمود القمني : دراسات في الاساطير والديانات (مجلة آفاق عربية ٧ ـ ١٩٨٢ عدد ٩ ص ٤٥) .

فنان ماهر مثل دياز) انه مدير الحلة الذي بلغه خبر قدومنا بالتلغراف فجاء لملاقاتنا راكبا يحيط به عدد من خدمه الاسباهية على جيادهم ، مع عدد من العامة الفضوليين بازيائهم الغريبة ؛ ويزيد ضياء الشمس الناصع من ابراز الوانها . ان الشرقيين دون غيرهم اعرف الناس في التوفيق بين الالوان الفاتحة والغامقة ، فلا يخطأون في هذا المجال ، ان لهم اناقة فطرية .

تبادلنا السلام ثم اكملنا السير الى تقاطع خمسة طرق تتوسطه نخلة جبارة ، ثم عبرنا قرية صغيرة وجسرا قائما على قوارب فوق الفرات وسوقا نشطا ، ولم يتركنا المدير الى ان وصلنا الى بيت مضيفنا التاجر اليهودي الذي يعمل كوكيل لشركة « ويبر » في بغداد ، وكان البيت واسعا وغرفة الديوان فسيحة وهي في الطابق الاول فحللنا هناك حيث لقينا ضيافة كريمة .

الحلة

شيدت الحلة فوق منطقة من مناطق بابل الجنوبية ، ويظهران الحلة ترجع الى عهد الخلفاء. ولقد نوه بها « بنيامين التطيلي »(٢٧) ، اذ وجد فيها نحو عشرة الاف يهودي ، وليس باستطاعتي ان اخمن عددهم حاليا ، لكن لا يفوق الخمسة الاف اي نحو ثلث السكان . وهم حسب معظم الروايات من بقايا الاسرى الذين ساقهم نبوخذ نصر ، ومكثوا هناك لسببين اولهما لوجود مصالح تجارية وثانيهم لقربهم من قبور اوليائهم مثل عزرا وحزقيال فبلاد كلدية اصبحت ارضا مقدسة بسبب هؤلاء . ولي ملاحظة خاصة في يهود العراق بل وفي يهود البلاد العثمانية كلها وهي حجب النساء ، بخلاف يهود اوربا الشرقية .

كان بيت مضيفي جميلا جدا ، مقسوما الى قسمين متشابهين يفصلهما جدار ؛ وفي كل بيت فناء مبلط ، وسرداب تعلوه غرفة الديوان والغرف الملحقة به . ولا بدمن الخروج الى الطريق للتنقل من هذا البيت الى الاخر ، وابواب البيوت اشبه ما تكون بابواب القلاع ، ففي هذا البلد التعيس يعتبر كل بيت قلعة لصاحبها ، والابواب متشابهة جدا ، فحدث لي مرة اني دخلت الى حرم بيت مضيفي خطأ ؛ فاصاب الهلع بنات صهيون اللواتي لهن عيون كالمخمل البني . وتقدمت بخطى ثابتة لاصعد الى الديوان ولم انتبه الى ما فعلت الا عندما سمعتهن يطلبن النجدة ، فعدت ادراجي والقيت سلاما عليه يعيد الطمانينة الى هذه المجموعة الحلوة من النفوس المتناعة .. هذه هي مغامرتي الوحيدة في بابل واقصها على علاتها فليس فيها ما يثير الشبهات !

لقد وجد الزرع اليهودي ارضا خصبة في هذه الربوع . اما زرع نبوخذ نصر فهو اقل حظا ؛ فاني اشك بوجود اكثر من ثلاثة الاف كلداني في منطقة بابل كلها ، وهؤلاء الكلدان الكاثوليك من الطقس الشرقي ، يتمتعون بحماية فرنسا ، ويكثرون في اطراف آشور ، بين الموصل ووان وفي رقعة تمتد الى اورميا في بلاد فارس . لقد تجمعوا في الشمال ولم يعد لهم مكان في الجنوب ولهم جماعة كبيرة في قرية عينكاوة قرب كركوك(٢٨) حيث يقيم اسقف ، وجماعة في بغداد وفيها يقيم البطريرك الكلداني(٢٩) .

لايسمح المجال للاطالة في الكلام عن الكلدان . وكيف ان هيئة علمية صغيرة اعطت اسمها لامة . للكلدان المعاصرين سمات رائعة تذكرنا بتلك القسمات القوية التي نلاحظها في الاثار الاشورية ـ البابلية . النساء بصورة عامة كبيرات الاجسام وقويات يتحلين بجمال مجسم يفتقر الى الرقة ؛ لقد رايت مئات الجميلات لكن الجمال الرقيق قليل وقد تجده في صغيرات السن فقط .

ولا تختلف ازياء النساء النصرانيات عن المسلمات ؛ فهو ذاك الزي الثقيل البشع المنتشر في الموصل وبغداد .

كانت غايتنا الذهاب الى اثار بابل ؛ لذا تركنا السيد بيريسيه في البيت لانه كان ينتظر بعض التجار اليهود الذين يتعاملون بالعاديات ؛ وهم كثيرون في الحلة . وقد رحلنا انا والسيد بيليسيه وميخائيل وغايتنا خرائب المدينة الداخلية التي مررنا بها بالامس (ويدعوها السيد اوبير : المدينة الملكية) . وقبل ان نبارح الطريق الذي نوهت به رايت سورا مربعا ، وقد تآكلت زاويته الشمالية ـ الشرقية ؛ لعله موقع القصر . هذا السور الجميل الغارق في احضان النخيل الكثيف هو اهم ما تبقى

٢٧ـ في رحلته المعروفة .

٢٨ـ بلدة عينكاوة تقع قرب اربيل ، لكنها كانت تتبع كركوك حسب التقسيمات الادارية الكنسية .

٢٩ـ كان البطريرك يقيم في الموصل آنذاك ، لكن عنوان كرسيه هو « بطريرك بابل » .

من الخرائب . ولاشيء يدل بالتأكيد الى شكله الاصلي .

بعد نصف ساعة عبرنا قناة كبيرة تدعى « النيل » وتجري بمحاذاة قناة عريضة قديمة ، ثم تعود بعد قليل الى المجرى القديم . ومررنا بمنحدر حيث بقايا السور المتقدم الذي نوه به الاقدمون ، وهناك يقوم مسجد باسم « عمران » فوق اكمة عظيمة من الخرائب وهي القسم الاول من الاثار وقد جرت فيها تنقيبات اتت بنتائج حسنة وهي العثور على مقبرة . كما ان القرويين ينقبون بلا هوادة لحسابهم الخاص فيعثرون دائما على بعض الاثار التي تكثر عادة في القبور القديمة . وقد وجدت بعضهم عند « عمران » وقد انكبوا على العمل ، وافتنيت منهم بعض التماثيل المبتورة وهي من الفخار للربة « ميليتا » وهي « فينوس » « البابليين » .

لم نجد ما يلفت الانظار في منطقة « عمران » فانحدرنا الى ارض سبخة تتحول في الشتاء الى مستنقع على ما اظن ، تفصلها عن الفرات انقاض غير مهمة ، ثم مررنا باثار صلدة مربعة الشكل تقريباً يطلق عليها الاعراب اسم «القصر» او القلعة ، وهم ينقبون فيها ايضا . ولقد اظهرت التنقيبات هناك قسماً من السور المشيد بالاجر بطريقة حسنة ومتينة جدا كما وصفها قديما هيرودوتس وديودور(٤٠) وغيرهما ممن كتبوا عن مدينة سميراميس .

لاشك اننا امام افضل الاعمال التي اجرتها ارملة « نبونوس » الشهيرة . لكننا نجد اختلافا في الابعاد التي ذكرها الاقدمون وبين ما هو امامنا الآن في اطلال (القصر) ويرجع هذا الاختلاف الى فعل الزمن والهدم المتواصل .

ذكر «كونيس وكورسيوس» ان ارتفاع القلعة ٨٠قدما، ومحيطها ٢٠ فرسخا أما المقاييس الحديثة فتشير الى ارتفاع قدره ٧٠ قدما ونحو ٢٨٠٠ م للمحيط والفرق بين القديم والحديث نحو الثمن.

ثم وصلنا امام شجرة هرمة مبتورة ، هي الشجرة الوحيدة الصامدة هناك تظلل الخرائب .. انها شجرة سمير اميس ، والدرى الوحيدة الباقية من الجنائن المعلقة الشهيرة ، ولذا فهي شجرة مقدسة في نظر السكان، ويقولون أن «علي» [كذا] ربط فرسه بها قبل سفره الى واقعة كربلاء حيث لقي مصرعه . وهي شجرة اثل ؛ صورها « كيبل » في كتابه الجيد الجدير بالقراءة خاصة في ما يخص بابل ، لكن الرسم الذي نشره في كتابه لم يكن موفقا، فاثل القصر له جذع متين عظيم رغم ما اصابه من تقطيع وبتر ، يمتد منه فرعان سامقان يشمخان بكبرياء نحو السماء ، وفي آخر كل فرع اوراق تمنح ظلالا لطيفة ..

الجنائن المعلقة

ان الجنائن المعلقة هي احدى عجائب الدنيا وقد اشهرت اسم بابل فجعلته شعبيا عبر العصور، ولعل الاكثرية الساحقة من القراء تراودهم اسئلة ملحة : ماذا بشأن الجنائن المعلقة ؟ وما قصتها ؟ يا لسخرية القدر الذي يهمل مؤسس دولة مثل « بيلوس » ، وامراة عبقرية كسمير اميس وفاتحا كنبوخذنصر فتتلاشى اعمالهم من ذاكرة الشعوب ؛ بينما يبرز عمل املاه الهوى الباطل والرغبة الرومانطيقية لملك خامل شاء التاريخ ان يهمل اسمه فلا يصل الينا ، كل ما هناك ان ملكا بابليا كان يفضل محظية اجنبية وكانت تتحسر على المناظر المتنوعة في مسقط راسها ، بينما تعيش هنا في ارض غرينية منبسطة ، فأراد العاهل العاشق التعويض عن ذلك الحنين بتشييد حديقة واسعة فوق القلعة يجمع فيها انواع النباتات من ارجاء مملكته العظيمة؛ ويطيب لي ان اذكر هنا الوصف الذي تركه « ديودور الصقلي » فهو المؤرخ الوحيد الذي روى بتفاصيل دقيقة فقال : « كانت الجنائن مربعة الشكل ، يبلغ طول الضلع الواحد ٤٠٠ قدما ، وفيها سلالم للصعود من سطح الى اخر ، بحيث ان الشكل العام يكون كمسرح مدرج . وتستند السطوح على دعامات يبلغ ارتفاع اعلاها خمسة وعشرين مترا ، وهذه الدعامة تسند السطح الاعلى للجنائن ، وكان علوها بمستوى السور . اما سمك الجدران فيبلغ ٢٢ قدما ، ويزداد عرضا عند بروز الدعامة عشرة اقدام اخرى .

شيدت اسطح الحديقة من كتل حجرية تبلغ ابعادها ١٦ قدما طولا واربعة عرضا ، وهي مغطاة بطبقة من القصب المشبع بالقار ويبني فوقها صفان من الاجر المثبت بالجص ، ثم تغطى بصفائح من الرصاص لتمنع تسرب الماء . وكانت كميات التراب كافية لاحتواء جذور اعظم الاشجار . وكانت هذه الارض الاصطناعية عامرة بانواع الاشجار

٤٠- ديودور الصقلي : مؤرخ يوناني له « المكتبة التاريخية » بحث في كتابه التاريخ العام منذ القدم المصور الى سنة ٦٠ ق.م .

وقد رتبت حسب الاحجام لتعطي منظرا جميلا . وكانت الاعمدة تصعد تدريجيا لتترك مجالا لدخول النور الى المخادع الملكية العديدة . وكان هناك عامود مجوف من اسفله الى قمته ويضم الات السقي اذ كانت المياه تصعد بكميات كبيرة من النهر دون أن يراها المشاهد .

ويضيف « سترابون »(٤١) بان الاعمدة التي تسند الجنائن تحتوي على كميات من التراب كافية لاحتواء جذور اعظم الاشجار .

اما « كونيتوس كورسيوس » . الذي لايعتمد عليه كثيرا لتغلب الخيال الزائد على اسلوبه — فيذكر ان بعض تلك الاشجار كانت عظيمة الجذع اذ يبلغ محيطها اربعة امتار وارتفاعها خمسين قدما ؛ وتعطي اثمارا وافرة كما لوكانت في الارض المستوية. وهذا مالا اوافق شخصيا عليه . مع العلم ان الاراضي المحيطة بالقصر رائعة حقا وبمستوى الفرات ؛ ولو طاب للعاهل البابلي ان يقيم الرياض والبساتين ويربي فيها الحيوانات الوحشية فلم يكن بحاجة الى ذلك البناء الغريب الصاعد الى السماء ثمانين قدما فوق مستوى الارض ؛ اللهم انه اراد اشباع رغبة تجتاح عادة الملوك الطغاة الذين يستسلمون الى رغبات جامحة وافكار غريبة عن الذوق والعقل ، تلك الاهواء التي خلقت الاهرام مثلا او قصر فرساي ومارلي(٤٢) ، اوتلك المقصورات التي يشيدها السلاطين على عهدنا في مختلف انحاء الشرق التي تشوه اجمل المناظر الطبيعة وتثير اعجاب البلهاء !

ان صديقي « بليسيه » لايتقبل بسهولة نص الكاتب اليوناني الذي ينسب شرف « واي شرف هذا ! » اقامة الجنائن المعلقة الى سميراميس . انه يفضل ان يتاملها وهي الملكة الحمامة التي رفعها الكلدانيون الى مصف الالهه . ولكن علي ان اتبع النص حرفيا ، علما بان التقليد المتواتر يؤيد ذلك ، ولكن قد تكون الاجنبية الجميلة التي كلفت الدولة هذا التكريم الباهظ تحمل اسم سميراميس ايضا .

اسد بابل

على بعد خمس دقائق ، وبعد ان نزلت قليلا وسرت في ممر واسع رايت في آخره اسدا من الحجر مبتور الراس وبعض جانبه الايسر ، ولا يزال قسم من اقدامه مطمورا في الركام ، ولا شك في منظر الحيوان ، فهو منتصب ومستند على شيء غير واضح المعالم .

ان اول الرحالين الذين شاهدوه ادعى بان هذا الشيء هو جسم انسان ، وبان منظر التمثال يشير الى قصة دانيال . ولا حاجة، بالطبع ان اقول ان هذا السائح كان انكليزيا متشبعا بالتوراة كمعظم مواطنيه . ثم اتى « كيبل » الذي راى في التمثال فيلا ، والدليل على ذلك ان الرسم الذي نشره ، اذ وضع للتمثال اذنا وخرطوما من مخيلته ، كما قصر ذنبه ، واعتبر انفراغ الظاهر في الجسم كبردعة . . . يالله من خيال خصب !

لندع جانبا التنقيب والاثار ، والنظرة في فكرة « كيبل » ، فالحر خانق ، وقد شعرنا بالجوع ، لذا عرجنا على بستان قريب ، فوجدنا مكانا مريحا ، وظلا وارفا، ومساحة مزروعة بالخضروات يقوم على خدمتها رجل عربي جميل الملامح ، فنزلنا هناك وتناولنا طعاما لذيذا. . . ولماعدنا الى الفرات شعرنا بحاجة الى اطفاء جذوة العطش الحارقة ، فانحنى صاحبي عند حافة الماء ليشرب فانغرست قدماه في الغرين اللزج وكاد ان ينزلق لو لم يسرع احد المرافقين فيمد اليه رمحه ليستند اليه . . . نظرنا الى ضفة الفرات اليمنى وكانت عامرة بالمزورعات ورانا انها اوطا من هذه الضفة . ووراء اشجار النخيل العالية تبرز بقايا بابل بلونها الاحمر التي يمكن مشاهدتها من جميع الجهات . واذا ما صعدنا على مرتفع نستطيع ان نميز بسهولة بقايا برج الافلاك السبعة اي « بورسيبا » ، الذي يسيطر على البقعة الهادئة التي اكتسحها الفيضان الى نصفها . وفي ذلك السكون لم نسمع نعيب غراب او صراخ ابن اوى ولكن صوتا هادئا حلوا كان يأتينا من بعيد ، هو صوت ناعور على الفرات ، فنواعير الفرات لاتصدر صوتا قويا حادا كنواعير النيل .

تجارة العاديات

عند عودتنا وجدنا السيد « بيريسية » وقد اضاع نهاره سدى كالقائد « تيطس »(٤٣) . لان ابناء كلدية الذين يدعون بتجارة العاديات لم يعرضوا

١ـ جغرافي يوناني (نحو سنة ٥٨ ق.م — ٢٥ ب.م) .

٢ـ قصر عظيم شهير في فرنسا امر ببنائه لويس الرابع عشر، تحيطه حدائق واسعة غناء ، لا يزال موجودا . اما قصر « مارلي » ، فكان قرب نهر السين شيده لويس الرابع عشر ايضا ، دمر في الثورة الفرنسية .

٣ـ تيطس بن فسبسيان : امبراطور روماني (٧٩ـ٨١م)عرف برغبته في المساعدة ، ولذا كان يردد « اضعت يومي » عندما لا يقدم هونا لاحد ، وهو الذي حاصر القدس واحتلها سنة ٧٠م على عهد ابيه .

عليه شيئا اصيلا جديراً بالاهتمام ، بالرغم من ان صاحبنا ميخائيل جال في اكواخهم يوم وصولنا ، ونشر اخبارا عنا ، وعن كرمنا وعدم اهتمامنا بالاسعار . اما هو فقد ابرم صفقتين مهمتين : فقد اشترى مقبض سيف من البلور الحجري بثلاثمئة قران (٣٣٠ فرنكا) معللا نفسه بان يجد مغفلا بين العسكريين من ذوي المراتب العليا ليبيعه له بثمانمئة قران . كما اقتنى اناء مهشما من الهيصم، لكن قطعه الثمان جيدة ، فعرضه علينا بفخر واعتزاز . الغريب في هذا الاناء انه يحمل كتابة مسمارية واخرى هيروغليفية ، ولعل القاري يعتقد ان هذا الاناء تحفة نادرة وحيدة ، لكن الحقيقة هي عكس ذلك : فالكتابة مزورة . ان اليهودي الذي ادعى العثور على الاناء قلّد الكتابة ، فالخط المسماري مشوه في الغاية ، ولا يشبه كتابة اغبى طالب في المدرسة البابلية . لكن المزور اعتنى اكثر في نقل الكتابة الاخرى لكنه اخطا عندما نقلها معكوسة .

من المؤكد ان المزورين في هذه الانحاء لم يصلوا الى المستوى الرفيع الذي وصل اليه امثالهم من مزوري العاديات في روما !

برس نمرود

نهضنا صباح اليوم التالي بعد ان اخذنا قسطا من الراحة ، وامتطينا الجياد ، وغايتنا زيارة اثار « برس نمرود » اي « بورسيبا » التي تبعد عن الحلة نحو ثلاث ساعات(٤٤) . ولحسن حظنا كان الجو معتدلا ، فمررنا بسهل منبىء بالادغال ، تنتشر فيه تلال اثرية ، وتظهر في الارض اثار القنوات القديمة ، ورأينا قناتين فيهما ماء .

في الساعة التاسعة والنصف وصلنا الى الاكمة التي يقوم عليها البرج . وبعد خمس دقائق استرحنا في ظله ، وقد ظهر امامنا للمرة الاولى بكل جلاله .

من اغرب الامور التي اثارت دهشتي خلال حياتي كلها كسائح هي تلك الكتل المنصهرة المزججة التي تغطي قمة التل وقد ظننتها للوهلة الاولى صخورا محترقة انطلاقا من منظرها وتماسكها . ولكن بعد ان امعنت النظر عرفت انها طبقات من الآجر الاصفر المائل الى اللون الاخضر ، وهذه الطبقات مصفوفة فوق بعضها بالقار ، وقد تم فخرها الى حد انتصخرج بحيث انها تماسكت بكتل قوية ، لم يتوصل اي شعب بعد الكلدانيين الى تشييد بناء قوي كهذا . لقد رايت الملاط الروماني ومخلفاته الجميلة ، وشاهدت اثار برج « سيسون » الهائل في « بريتانية » الذي حاول هنري الرابع نسفه ، فسقط قسم منه في الحفر القريبة وبقيت القطع الساقطة متماسكة وبعد مئتي سنة لم تنفصل عنها الا بضعة احجار ، لكن كل ذلك لا يقارن بتماسك اثار برس نمرود وقوته .

لا استغرب ابدا ان الخيال لعب دوره في تشخيص هذه الكتل . وكالعادة ابدى الانكليز بارائهم المختلفة في هذا الموضوع انطلاقا من الكتاب المقدس ، قد تكون بعضها مصيبة وقد لا تكون . قال بعضهم ان هذا الاثر هو بقايا الاتون الذي صهر فيه ابراهيم اصنام الكلدانين . بينما قال اخرون انه بقايا برج بابل الذي طالما تضاربت الاراء في شأنه (٤٥) وما التزجيج الا من اثر الصاعقة التي سلطها الله على البرج الملعون . لكن الكتاب المقدس لا يذكر صاعقة البتة . اما رايي فهو ببساطة ودون ادعاء مني ، ولعله اقرب الى الصواب ، فهو ان هذه الكتل تمثل واجهة البناء ، وما البرج المائل حاليا الا مركزه ، انه شاهد وحسب . اما طرق التزجيج المعروفة في بلاد بابل فقد شرحها الاقدمون ولا حاجة ان اثقل على القراء باعادتها .

من المعروف ما هو مدى حقد الفرس ، وخاصة « احشويرش » عندما شنوا الحرب ضد جميع الاثار الدينية والوطنية الخاصة بالكلدانيين، وهذا البناء يحمل اثارا واضحة للحريق فقد كان ضحية وحشيتهم . ولقد مات الاسكندر وهو يحلم باعادة بنائه تحركه فكرة التعاطف مع الامة الكلدانية لكن موته المفاجيء حال دون تحقيق مخططه هذا الى جانب امور اخرى مهمة كان يفكر بتحقيقها في المدة القصيرة التي امضاها في بابل .

ماذا كان « برس غرود » على عهد المملكة البابلية ؟

قد يطول بنا الحديث اذا اردنا ان نعرض بدء الفكرة القائلة بان « برس نمرود » هو برج بابل ، وكيف تبلورت هذه الفكرة وانتشرت واصبحت من الامور المسلم بها عند الرحالين . لكن هذا الاعتقاد هو حديث العهد نسبيا . فان « بنيامين

٤٤- تبعد بقايا « بورسيبا » او « بارسيبا » نحو ٢٠ كم عن بابل ، الى الجنوب منها .

٤٥- سفر التكوين : الفصل الحادي عشر .

التطيلي »(٤٦) الذي بذل جهدا محاولا العثور في كل مكان على ذكريات توراتية ، طاب له ان يطلق اسم بابل على الخرائب الواقعة على الفرات على بعد عشرين ميلا منها ، رغم ان اثار بابل كانت موجودة على عهده (القرن الثالث عشر)(٤٧) وكان يقطنها عشرون الف يهودي ضمن سكانها(٤٨) مما يجعلنا نخمن عدد سكانها انذاك نحو ستين الف في الاقل . ان هذه الفقرة من كلامه لم تثر الانتباه ؛ لكنها تشير بان بابل عاشت اكثر مما كان يظن عادة، اذ ان الاعتقاد السائد بان خرابها حدث على اثر قيام « سلوقية » اي قبل ١٤ ــ ١٥ قرنا من مجيء الرحالة العبري التطيلي .

واعتقد ان « بينيامين دي تطيلا » (٤٩) هو اول من اعتبر « برس » هو برج بابل ، وانتشر هذا الاعتقاد وراق للجميع منذ ايام « ديلافاليه » الى ايامنا هذه . اني شخصيا اعتقد ان قصة برج بابل ما هي الا اسطورة كقصة الفردوس الارضي لاغير: مهما يكن من امر فانا ادع للجغرافيين مهمة تعيين حدود هذا الفردوس والاشارة الى موقع البرج في خرائطهم . اكتفي بالقول ان نص الكتاب المقدس لا يؤكد البتة تلك الفكرة العقيمة التي طاب للعوام لصقها باهل بابل وهي انهم ارادوا ببرجهم الصعود الى السماء . كل ما في النص المقدس انهم اقاموا بناءا تذكاريا عاليا « حتى السحاب »(٥٠) وهو تعبير فيه شيء من المبالغة لكننا نجد امثاله في اكثر من كتاب كلاسيكي « كالانياذة »(٥١) مثلا .

من المعروف ان بعض الرحالين ياتون الى بابل وفي اذهانهم افكار وتصورات معدة مسبقا ، فيحدث ان تتهاوى هذه الافكار ان طرأ اختلاف بسيط بين الواقع الملموس وبين الافكار التي يحملونها استنادا على نص من نبوءة اشعيا مثلا ، فهم يلتزمون حرفيا بالنص ، واذا بهم يرون في المنطقة نخيلا وقرى وبساتين وسكانا وما الى ذلك فيرتبكون! وخير مثال على ذلك ان احد العسكريين الانكليز الذي وضع في الجغرافية كتبا مهمة اقدرها كل التقدير ، لكنه انكر وجود بابل في هذه المنطقة لا لشيء الا لانه لم يجد المنطقة قاحلة كليا . مدمرة بالتمام ، ملعونة بكل معنى الكلمة ! انه السيد « سيلبي » الذي كما قلت اكن له تقديرا ولا اضعه بمستوى ذلك السيد الذي نشر كثيرا لا لشيء الا ليبرهن ان « قرطاجة » كانت في « بوجي »(٥٢) وان جبل سيناء كان في « سانتوران »(٥٣) هذا الصنف من الرحالين يتناسى ويهمل ما كتبه هيرودوتس وزينيفون وبيروس(٥٤) وكتسياس(٥٥) هولاء وان لم يكونوا انبياء لكن لهم حق الكلام في امور شاهدوها .

وجاء آخرون يبحثون عن الاشاعر(٥٦) التي ذكرها اشعيا(٥٧)؛ وهي في الاكثر قردة فلما لم يجدوا اثراً لها احتاروا في امرهم ، اذ ليس من المعقول ان يكون اشعيا على خطأ ، فاذا باحد الرحالين ينقل خبرا سمعه من شخص تركي مفاده ان في بابل مخلوقات نصفها الاعلى بصورة بشر ، والنصف الاخر يشبه العنز ، واضاف التركي ان الاعراب يصيدون هذه الحيوانات بواسطة الكلاب ويأكلون افخاذها واطرافها السفلى ، اما البقية فيتركونها لان اكلها يعتبر كاكل لحوم البشر ! .. اني اتساءل مع اجلالي الشديد لقيمة الكتاب المقدس التاريخية ، ما الفائدة من الالتزام بالتفسير الحرفي لنصوصه ؟

★

هناك في بغداد مبعث للاباء الكرمليين ، ولهم يقين ببرس بابل ، وقد طاب لهم قبل ثلاث سنوات او اربع ان يحولوا اعتقادهم الى واقع ، فجلبوا من اوربا تمثالا للعذراء مريم ، من فضة او نحاس ،

٤٦ــ رحالة يهودي اسباني ، كتب رحلته بالعبرية وقد نقلها السيد عزرا حداد الى العربية (بغداد ــ ١٩٤٥) ، وهي من اقدم الرحلات .

٤٧ــ الاصح : القرن الثاني عشر .

٤٨ــ رحلة بنيامين : ص ١٤٠ .

٤٩ــ رحالة ايطالي (١٥٨٦ ــ ١٦٥٢) تعد رحلته من انفس الرحلات وامتعها وقد نقلناها الى العربية كاملة ولم تنشر حتى الان .

٥٠ــ نص الكتاب المقدس : « تعالوا نبن لنا مدينة وبرجا راسه الى السماء ونقم لنا اسما كي لا نتبدد على وجه الارض كلها » (التكوين ١١ : ٤) .

٥١ــ ملحمة الشاعر الروماني الشهير فيرجيل(٧١ــ١٩ق.م).

٥٢ــ وهي « بجاية » مدينة ساحلية في الجزائر .

٥٣ــ جزيرة في ارخبيل اليونان .

٥٤ــ ويسمى ايضا « برجوشا » من الكهان الكلدانيين (القرن الرابع ق.م) كتب تاريخ كلدية لكنه فقد وسلم منه نصوص عند اليونانيين .

٥٥ــ مؤرخ يوناني (القرن الخامس ق.م) طبيب ارتحشتا ، له مؤلفات عن بلاد فارس والهند .

٥٦ــ ترجمة لكلمة Satyres وهي مخلوقات اسطورية، انصاف آلهة . (ترجمة اليسوعيين ــ بيروت) .

٥٧ــ اشعيا ١٣ : ٢١ .

وسار الاب م.ج[٥٨] باحتفال مهيب لينصب التمثال على البرج كرمز لتكريس مهد البشرية للنصرانية. وتسلق الرجل البرج بجر التمثال بالحبال ، وعند وصوله الى القمة وجد ما لم يحسب له حساب . لقدوجد فهدا مستسلما لاشعة الشمس الطيبة ، واذ سمع الرجال الذين كانوا على الارض صرخوا داعين الاب الى النزول ، ولعل الرجل في قرارة نفسه اراد الهبوط ، ولكن كيف يظهر الاوربي خوفا امام الشرقيين ! لذلك تسمر في محله يتبادل النظرات المتحفزة مع الحيوان اكثر من ساعة ، ولحسن حظه كان الفهد قد تناول وجبته في ذلك اليوم لذا ترك المكان وذهب في سبيله ، ونصب الاب التمثال حيث اراد ، وبقي في موضعه على ما اعتقد وسيبقى الى ان تحين الفكرة لاحد الاعراب فينزله ويبيعه كقطعة اثرية لاحد الانكليز الاثرياء! ..ارجو الايفهم القاري بان الاب لا عمل له سوى نصب التماثيل على الابراج المتهدمة ، الواقع ان الرجل يتعاطى الطب في خدمة فقراء بغداد كما يفعل معظم المرسلين في الشرق ، بل لعله الطبيب الوحيد ، لان ولاة الامور الاتراك لا شان لهم بالفقراء الا لاستنزاف آخر بارة منهم ..

لقد تصرف الاب المذكور تصرفا حميدا عندما انتشر مرض الكوليرا ، بعكس منافسيه الاميركان الذين هربوا من الوباء بحجة انهم اصحاب عائلات.

اعود الى موضوع البرج

اقترح عدد من الكتاب المعروفين، في السنوات الاخيرة ، أن « برس » يحتمل ان يكون هيكل « بيلوس »[٥٩] ، وكان هرمي الصورة ، قائم الزوايا ، يتكون من ثمانية طوابق ، وكل طابق مخصص لاحد الكواكب السيارة ، ويختلف لون الاجر لكل طابق بحسب اللون الخاص بالكوكب .

ولم يعد هناك شك في هذا الراي بعد الاكتشاف المهم على يد الكولونيل « رولنصن »[٦٠] فهذا العالم الجليل في الامور الكلدانية جاء الى « برس » عندما كانت حالته احسن مماهي عليه الآن اذ لم تكن الايادي قد عبثت به ، وشرع بالحفر والتنقيب في احدى زواياه السفلى ومد يده في الحفرة الضيقة وعندئذ اصفر وجهه فظن العمال ان عفريتا لدغه في آخر الحجر ، لكني اعتقد ان المشاعر التي كانت تجيش في نفس المنقب العالم ، مشاعر الامل والفرح ، امل الاكتشاف والخوف من الفشل المحتمل هي التي ادت الى الشحوب الذي علا وجهه ، لكن الامل تغلب في آخر الامر اذ انه سحب من الحفرة اسطوانة فخارية عليها كتابة الاوامر الملكية ، وهذه الكتابة ابعدت كل شك بخصوص المكان . فمن المؤكد تاريخيا ان «برس» هو هيكل «بيلوس » الذي وصفه هيرودوتس وديودور وقد كان برج الكواكب السبعة اي اهم مرصد عند البابليين .

اخيراً فان الركام الاثري المائل الى الشرق من البرج حيث يقع مزار ابراهيم الخليل هو في الواقع « بورسيف » الكلدانيين او « برسيبا » كما ذكرها « سترابون » وهو مركز احدى الهيئتين المهمتين من الفلكيين البابليين وهم « جماعة البورسيبيين » . اما الهيئة الثانية فهم الاوركانيون نسبة الى «اوركا» وهي الوركاء حالياً .

ليس بامكاني التعبير عن المشاعر التي غمرتنا ونحن ننقب الخرائب التي نشأ فيها منذ مطلع التاريخ علم دقيق يرفض الفرضيات وهو علم الفلك. ان الاسكندر نفسه وجد عند البابليين مجموعات من الارصادات الجوية المتسلسلة لمدة ١٩٠٤ عاما ، فارسل زبدتها الى ارسطو ، وقد اعتمد عليها فيما بعد « بطليموس الاسكندري »[٦١] عندما وضع كتابه الجديد في الجغرافية الفلكية . ونعرف ان هذه المعلومات كانت مسجلة على الآجر المزجج من تلك الانواع التي تكتشف بالالاف في برس بابل وعمران وهي مبعثرة هنا وهناك. واني اسأل : متى يتم جمع تلك « الجداول الفلكية » الكلدانية التي تم الكشف عنها دون مقابل ، بحيث يتم عملياً ربط سلسلة الزمن بعد ان فككتها بربرية العصور الوسطى ؟

يروي لنا « سترابو » خبرا غير علمي يخص « بورسيبا » وهو وجود عدد هائل من الوطاويط الكبيرة ... اما الآن فلا اثر لها هناك ، لقد رحلت الى الحلة وبغداد ، ولم يبق في « برس » الا وطواط

٥٨ـ هو الاب ماري ـ يوسف الكرملي المتوفى في بغداد سنة ١٨٩٨ وحادثة نصبه التمثال في بابل معروفة نوه بها كاتب سيرته المطبوعة في بغداد سنة ١٩٢٨ ـ ص ٥٧ .

٥٩ـ بيلوس او بعل وهو مردوخ ، والمعرف ان بارسيا كانت مركز عبادة الاله « نابو » او « نبو » ابن مردوخ .(طه باقر : مقدمة ص ٢٣٣ و ٤٢٨) .

٦٠ـ قنصل بريطانية في العراق (١٨٤٣ ـ ١٨٥٥) عني بتاريخ الشرق وآثاره .

٦١ـ فلكي مشهور ولد في مصر (القرن الثاني ب.م) مؤلفاته بقيت معتمدة حتى القرون الوسطى .

جميل من البرونز وجده بين الانقاض الكولونيل « كينيل » قنصل انكلترا في بغداد ، وقد تلطف فقدمه لي للذكرى .

على بعد عشر دقائق من « برس » تظهر صفحة الماء الازرق الجميل ، وتمتد في الافق نحو الغرب : انها « بحيرة الهندية » المتكونة من المياه الفائضة من قناة الهندية ، وتحيط بالموقع الاثري على شكل نصف دائرة ، وفيها بعض الجزرات التي يسكنها الاعراب ...

لا يوجد في الطريق بين برس والحلة اي بيت، بل انقاض واخربة ... واكثر من عشرين قناة يابسة تشهد لماضي خصب بعكس اليوم ، اذ يسير المرء ١٠ ـ ١٥ ساعة دون ان يجد اثرا لانسان ؛ اللهم قبور بعض الشيوخ الصالحين ، وخياما سود لبدويين ضعاف البنية قساة الطبع ، لكن قوامهم جميل نبيل .

هل كان هذا السهل يا ترى قسما من المدينة الكبيرة ، اي الضفة اليمنى لبابل ؟ هذا ما اعتقده ، والتاريخ يؤيد ذلك . لكن هل كانت هذه الضفة تمتد وتشمل بورسيبا ؟ اقر باني لااقدر البت في هذا الامر لاسباب عديدة يطول شرحها . لكن المخطط الذي وضعته لبورسيبا يظهرها وكانها مدينة مميزة: اقله في العهود المتاخرة ، وان مركزها هو ذلك الركام القائم الزوايا والانقاض المتناثرة حول ابراهيم الخليل .

لقد بحثت باهتمام عن اثار السور الكبير الخارجي ، الذي كان موجوداً بكل تاكيد بين برس والحلة ؛ واعتقد اني وجدته في الاكمة الكبيرة التي تنطلق من الفرات عند موقع « انانا » حيث لاتزال بقايا حوض صغير مربع لعله القصر الغربي الخاص بسميراميس ويتجه يمينا الى خرائب Teglié

اقترح على السائح الذي يزور بابل ان يقوم بنزهة في الهندية ، فيستاجر بلماً من تلك الانواع المطلية باللون الاسود وهي شبيهة بالجندول البندقي الى حد كبير . انه واسطة جيدة وسريعة للتنقل في شعاب الهور الذي هو السور الحصين للاعراب فهم اسياد المنطقة ولا يستطيع الاتراك الوصول اليهم .

عند قدومي من برس ، وانا استعد لعبور القناة الجديدة التي تفصل البرج عن اكمة ابراهيم الخليل ، رايت مابين البردي مشحوفاً وقد وقف بالقرب منه عدد من اعراب المنطقة بعباءاتهم السود وانبثية موقف المتمكن اللامبالي بينما كان الحراس الاتراك رغم عددهم الكبير وسلاحهم الكثير في موقف القلق وعدم الارتياح ... فالعرب يكنون بغضا للعثمانيين عميقاً ، وقد اعتاد العثمانيون ان يلقوا هذه المشاعر المعادية في كل الامصار التي استولوا عليها من الدانوب والى الحبشة واليمن .

اخبرني قائمقام الحلة انه اعد اسطولا من ٢٢٦ مشحوفاً لكي يتوغل في الهندية ويحمل على اهاليها. واذا علمنا ان كل مشحوف يتسع لستة جنود ؛ فبمقدوره ان يرسل فرقة سريعة الحركة قوامها ١٤٠٠ رجل . لكني اعتقد ان اخضاع الهندية لن يتم الا عند افتتاح خط الحديد بالنقرة ، اني اعرف الاتراك جيداً .

تمتد وراء الهندية ارض جرداء لا اثر فيها لنبت اواكام ؛ انها حماد Hamaâd وفي اولها بناء مربع ابيض اللون يشبه القلعة ؛ انه خان صبحة ياوي اليه المسافرون والزوار الذين يقصدون اضرحة الصالحين في « مشهد علي » او مدينة النجف المهمة (والغريب اني لم اجد اسم هذه المدينة على كل الخرائط التي اطلعت عليها) . ومن بعيد اشاروا الى « الكفل » ويعتقدون انه يضم قبر النبي حزقيال ، وقولهم جدير بالثقة . ويجذب المقام سنوياً عدداً كبيرا من الزوار اليهود والمسلمين. والمكان المبارك بيد اليهود حالياً وقد تحملوا صعوبات جمة من اجل حيازته ؛ فقبل سنوات طالب احد الدراويش المتشردين الذين يكثرون في المدن التركية الكبيرة ـ وعددهم مذهل في دواوين الحريم ـ فادعى بملكية الكفل للمسلمين، وبعد اخذ ورد تمت تسوية القضية لصالح اليهود بعد تاديتهم مئة الى مئتي كيس (اي ١٣ ـ ٢٦ الف فرنك) فاطمانوا .. الى ان يظهر درويش آخر !

لم يعد لنا حاجة للبقاء في بابل ولذا عدنا في اليوم التالي الى بغداد ولم يحدث لنا ماهو جدير بالذكر .

موقع سبار

عندما بارحنا « بئر النص » حيث امضينا ليلتنا، اتجهت يميناً لالقي نظرة على اثر لفت انتباهي منذ «الاسكندرية» ؛ يقع فوق تل صغير ، قريباً من نهر ملكا وقناة اخرى يابسة . انه برج مربع مشيد بالآجر تتخلله طبقات من القصب (وقد شرح هيرودتس هذه الطريقة في البناء) .طول

كل ضلع ١٤ قدما » وقد تصدع بفعل الزمن الى اربعة اقسام . واذ استفسرت من الدليل عن اسم هذا الاثر اجاب بانه «شيشبير » او « سسبير » والكلمة فارسية وتعني الاجنحة الستة . عند سماعي هذا الاسم انتقل فكري حالا الى ماكنت قد قراته ؛ فاني الآن امام اثار « سيسبارا » القديمة(٦٢) وهي اعرق مدينة في العالم حسب التقليد الكلداني.

ان بيروس (يرحوشا) في مجرى كلامه عن تاريخ الطوفان الذي يشبه ماورد في التوراة ؛ ذكر ان Xisuthrus وهو نوح الكلدانيين(٦٣) اطلع على قرب حدوث الطوفان بوحي الالهة فاسرع الى جمع كتب التعاليم الكلدانية باقسامها الثلاثة وخباها في مدينة الشمس سيسبارا وعاد بعد الطوفان فذهب لاسترجاعها ووضعها في بابل وشرع باعادة بنائها .

لكن سترابو ترجم الاسم الى اليونانية فسماها Hipparenum وقال انها مدرسة شهيرة للعلوم الكلدانية ، ونوه «ابيدينس »(٦٤) بشعب سيسبارا في كلامه عن حوض المياه الكبير الذي امرت سميراميس بحفره في هذا الموضع . كما الحت (مع العلم انه ينسب العمل الى نبوخذ نصر) ومن المحتمل صحة كلامه، فالارض المنخفضة في الشمال الشرقي من بابل في الطريق المؤدي الى سلوقيا قد تكون موقع ذلك الحوض الذي يمتد الى سيسبارا .

اعتبر هذا الاكتشاف الرائع اهم ماحصلت عليه من زيارتي لبابل ، ولذا فقد نسيت التعب والسفر الممل لسبع ساعات في ذلك اليوم .

عقرقوف

قبل ان نصل الى بغداد ، مررنا من بعيد بأجمل اثر بابلي واقربه الى هذه المدينة الكبيرة ، اعني به « برج عقرقوف » ؛ بان لنا عرضيا ومن خلال الضباب عظيما مهيبا ؛ يطلق عليه الاتراك اسم « نمرود طابسي » اي « تل نمرود »(٦٥) .

في الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا اخيرا الى القنصلية ؛ بعد ان انهكنا التعب ، لكن الرحلة كانت موفقة ورائعة فعلا .

رحلة الى طيسفون ـ سلوقية

اثارت فينا زيارة بابل حب الاطلاع والبحث ، لذا وضعنا في منهاجنا زيارة لاثار اخرى مهمة جدا وهي « سلوقية ـ طيسفون » المدينة التوام ، وتقوم اثار هاتين المدينتين على بعد سبع ساعات سيرا عن بغداد ، على ضفتي دجلة في الطريق المؤدي الى البصرة ، وإذ لا وجود لقوارب هناك من اجل عبور النهر ، قررنا ارسال واحدا من ذلك النوع المطلي بالقار الذي ذكرته اعلاه لينتظرنا عند الاثار . ثم خرجنا من بغداد جهة الجنوب ـ الشرقي ، ومررنا بسهول خصبة مزروعة . ولم نشاهد شيئا جديرا بالذكر . حتى وصلنا الى نهر ديالى فعبرناه بالدوبة.

قسوة الضرائب

في هذا الموضع رايت واطلعت عن كثب على نظام الضرائب الشرقي . فبين الذين كانوا ينتظرون دورهم للعبور وجدت مكارين عائدين من اطراف طيسفون بعد ان جمعوا كمية من الاحطاب اليابسة وهم في طريقهم الى المدينة لبيعها هناك والمعروف ان المواد المستعملة للحرق قليلة جدا في بغداد ؛ لذلك فهي غالية الثمن . بينما هي اوفر في الشمال في اطراف اشور ، وبالامكان شحنها في النهر اضعاف ما يصل بغداد حاليا . كانت حمولة الحمار من الحطب تباع في السوق بثلاثة قروش وثلاثين بارة تقريبا (اعني ٥٩ سنتيما بحساب القرش يساوي ١٥ سنتيما وثلثين) .

انه لامر في غاية الصعوبة ان يقوم المرء من اجل مبلغ زهيد بقطع مسافة ١٤ فرسخا في المطر والشمس الحارقة ، ناهيك عن علف حماره . ولعل القاري يعتقد ان ذاك الانسان المسكين لا يدفع ضريبة ، فليعلم انه على خطأ ، لانه لم يتعرف على تركية « المتحضرة » . ان هذا الحطاب يدفع عند عبوره ديالى عشرين بارة في الذهاب ومثلها في الاياب اي ما يساوي قرشا ، ويدفع مثل ذلك عند عبوره باب المدينة كضريبة، فلا يبقى عنده بعد بيعه الحطب الا سبع بارات (ما يعادل ٢٨ سنتيما) وللرجل اسرته ودابته عليه الاعتناء بها . هل يحتاج هذا المثال الى شرح اكثر ؟ انه ظهر المجن للحالة الاجتماعية في تركية ، فالوجه هو اسطنبول التي تمتص كل شيء ولا تضخ شيئا ، ناهيك عن القصور الانيقة على البوسفور ... ان نفسي تتقزز من

٦٢ـ تعرف اطلال مدينة سيبار باسم تل « ابو حبة » على بعد نحو ٣٥كم جنوب غربي بغداد ، قرب المحمودية ، واشتهرت بكونها مركزا لعبادة الاله الشمس « شمش ».

٦٣ـ ان بطل الطوفان البابلي هو (اوتو ـ نبشتم) وقد ورد في الروايات السومرية بصيغة « زيسودرا » كما ذكره صاحب الرحلة .

٦٤ـ مؤرخ يوناني (القرن الثاني ـ الثالث الميلادي) له كتاب في تاريخ بلاد اشور .

٦٥ـ سيعود المؤلف الى عقرقوف فيعطي تفصيلات اخرى عن الاثر .

البوسفور بقصوره وسرادقه ورخامه وذهبه وكل مظاهر الفنى الخليعة التي لا تجد للفن فيها الا النزر القليل ... اما الامواج الزرقاء التي تتهادى في تلك القناة الفريدة فهي في نظري ليست سوى دموع ملايين البشر الذين قدموا فلسا بعد فلس فكانت هذه المسوخ الكئيبة ...

اكملنا السير ساعات اخرى في السهل الحزين حيث لا تجد اكمة واحدة تخفف من حدة الافق . حتى ظهر امامنا في الجهة الجنوبية ـ الشرقية بناء « طاق كسرى » ككتلة صارمة مهيبة . انه البناء الوحيد الباقي من طيسفون وقبل ان اصل اليه مررت بتمرجات وتل صغير اسمه « زنبيل » ؛ وعلى امل ان اعود اليه ، ذهبت راسا الى الخيمة المعدة لنا وقد نصبت بين الطاق ودجلة .

بعد ان استرحنا قليلا ذهبنا لزيارة « طاق المدائن » ، واذ كان « اوليفيه »[٦٦] وصفه وصفا جيدا في مطلع هذا القرن ؛ فليس لي والحالة هذه الا انقل كلامه ، وهو في الواقع احسن من وصف « ديللافاليه » رغم ان حديث هذا الاخير له نكهته واصالة في تعبيره .

« شيد هذا البناء بالآجر المفخور ؛ على مسافة ربع فرسخ من دجلة . له واجهة نحو الشرق ؛ طولها نحو ٢٧٠ قدما ؛ ارتفاعها ٩٠ قدما . في وسطها ايوان او عقادة كبيرة ؛ عرضها ٧٠ قدما ؛ عمقها ١٤٨ ؛ وارتفاعها ٩٥ قدما . سمك جدران الايوان ٢٣ قدما ، اما عرض جدران الواجهة ١٨ قدما .

في الواجهة ستة ابواب عمياء ؛ وبابان مفتوحان مع مستوى الارض . وهناك صفوف من الشبابيك العمياء متقاربة جدا الى بعضها ؛ حتى ليقال انها كانت حنايا للتماثيل ؛ عمق الواحدة نحو قدم . والصف الواقع فوق الابواب مباشرة هو اصغر النوافذ قاطبة ، ولا يظهر ان هذه الشبابيك او واحدة منها كانت مفتوحة . وهذا يعني ان البناء لم يكن يستمد النور من هذه الجهة . لقد تلف القسم الاعلى من الواجهة ، ومقدمة العقادة ، كما امتد الخراب الى جناحيه الشمالي والجنوبي فوقعا ولم يبق الا بعض اثرهما . وهناك في الجهة الغربية بقايا جدران تشير الى ان البناء كان يمتد الى هذه الجهة ايضا .

٦٦ـ طبيب وعالم في العلوم الطبيعية ، اوفدته الحكومة الفرنسية . طبع رحلته بثلاثة مجلدات مع خرائط (باريس ١٨٠٠ ـ ١٨٠٧) وفي المجلد الثاني ما يخص العراق .

يطلق اهل البلاد على هذا البناء اسم طاق كسرى او ايوان كسرى ، ولا اعتقد انه كان هيكلا للشمس كما ظن كثيرون ؛ بل قصر شيده الملوك الفرثيون في طيسفون ؛ فنزلوا فيه بعد احتلالهم هذه المناطق ، واقتدوا بملوك الفرس الذين كانوا يقيمون قسما من السنة في « السوس » ببابل ، والقسم الآخر في « اكباتانا »[٦٧] .

الايوان حاليا بحالة جيدة نوعا ما ، وهو في اعتقادي قاعة واسعة في القصر ؛ اعدت خصيصا لتتناسب مع موسم الحر الشديد ، فمساحتها وسمك جدرانها واتجاهها الى الشرق ، امور تساعد على جعل المناخ باردا فيها ؛ وهذه الامور تذكرنا بالسرداب ؛ وهو الغرفة المعقودة تحت الارض ببضعة اقدام ؛ حيث يمضي اهل بغداد ساعات النهار ايام الصيف ، فقصر الملوك كان بحاجة الى ما يشابه السرداب ويتناسب مع القصر مساحة وجمالا .

ان الارض التي يمكننا ان نعتبرها موقع طيسفون تمتد نحو ميلين ؛ اذ اننا نلاحظ في مواقع عديدة بقايا الاسوار التي كانت تحيط بها ؛ وهي سميكة جدا وعالية ؛ مشيدة بقطع كبيرة من الآجر المعجون بالتبن والمجفف بحرارة الشمس بنفس طريقة عقرقوف تقريبا . تظهر اثار السور هنا وهناك في اكمات وانقاض متفرقة ؛ وتوجد جهة النهر بقايا اسوار متينة مشيدة بالآجر استعملوا القار في بنائها عوضا عن الملاط .

المزروعات في ارض هذه المدينة اكثر من المناطق المجاورة ؛ اشجارها اقوى ؛ ادغالها اكثر تشابكا وقوة .

جامع سلمان پاك

على مقربة من طاق كسرى يوجد جامع يقال انه اقيم فوق ضريح حلاق النبي ويدعى سلمان پاك اي الطاهر ؛ ويقصده المسلمون للزيارة ويمضون في جواره بضعة ايام ينصرفون فيها للصيام والصلاة؛ وينتفع سادن الضريح بمساعدات المؤمنين اكثر من اعتماده على الراتب المخصص له من قبل الوالي . واسم الولي صاحب المقام ابو عبدالله سلمان الملقب بالخير ، وله مكانة كبيرة في نفوس المسلمين ؛ وهو فارسي الاصل اعتقه النبي بعد اعتناقه الدين بحرارة واعتبره احد الصحابة ؛ وكان حلاقا عند سيده القديم ؛ ويروي بعضهم انه اجترح العجائب

٦٧ـ عاصمة الماديين قديما ، وهي همدان حاليا .

بالشعرات النبوية المقدسة . وبعد الفتح العربي لمدينة طيسفون عين حاكما عليها ؛ لكنه انزوى في هذا المكان يعيش بتعب يديه ويوزع على الفقراء ما يكسبه . اما مريدوه المعاصرون فهم بعكسه لا يشتغلون ولا يطعمون المساكين بل يعتمدون على ما يقدمه لهم الناس البسطاء .

بعد ان اطلعنا جيدا على طاق كسرى والاثار القريبة منه ، عبرنا بقاربنا الشبيه بقرعة كبيرة ؛ وذهبنا لالقاء نظرة على اثار سلوقية .

سلوقية

نزلنا باتجاه الجنوب ، في ارض يظهر فيها اثر الفيضان ، ومررنا ما بين الادغال لنصل الى مرتفعات كانت في سالف الازمان سور المدينة وتحصيناتها . ان غياب الصخر كليا في هذه المناطق كان وبالا عليها اذ ضاعت اثار البلاد البابلية ؛ فكل شيء كان مبنيا بالآجر ، وفي الحالات التي لم ينل الاجر قسطا حسنا من الفخر فان عوامل الزمن اثرت عليه فاحالته الى كوم رمادية صفراء ؛ فهذه حالة بابل وتكريت وطيسفون وفي عدد كبير من قصور بهرام في بلاد فارس ...

هناك كمية كبيرة من الانقاض بين آجر وفخاريات وزجاج تجدها في الموقع الذي يطلق عليه الاهلون اسم « السور » . وبالقرب من النهر بقايا خربة مربعة الشكل من آجر متحلل ، يطلق العامة عليها اسم «شال بارود» لان مخزن البارود الخاص بالولاية يقوم على هذه الضفة على بعد اطلاقة مسدس شمالا ؛ ويتم التجهيز هناك .

هناك كوم طينية اخرى تشير الى مواقع سكنية قديمة ، او مجموعات من الدور المنزوية ، وقد اشرت اليها في خارطتي .

ان خارطة الكولونيل « جسني » حسنة بصورة عامة . رغم بعض الاخطاء الطريفة بما يعود الى سلوقية ، كان بامكانه أن يتحاشاها لو عرف العربية؛ من ذلك انه اطلق على الموقع الذي يسمى « شال بارود » وشرحت معناه ، اما هو فدعاه «اثار بارود» كذلك موقع السور ورد في خارطته « اثار سور » (اي اسم علم) .

اما المعلومات الاولية التي وجدتها في كتب السالف عن سلوقية فهذه هي باختصار(٦٨) : شيدها « سلوقس نيقاطور »(٦٩) على نهر ملكا اي القناة الملكية التي شطرتها الى قسمين . اخبرنا الكاتب البيزنطي « ثيوفيلاكتس »(٧٠) بانها كانت محاطة بدجلة والفرات يحافظان عليها ؛ انه يشير في كل بد الى نهر ملكا الذي يبدأ من الفرات . وقد شيدت بمواد اخذت من بابل ؛ لقد استفادت من انحطاط بابل . امامخططهاالعام فيشبهالنسر وقد مدجناحيه. بلغ عدد سكانها في اوج عزها نحو ستمئة الف نسمة؛ وفي زمن انحطاطها وسقوطها هبط الى خمسمائة نسمة ؛ لقد كانت اعظم من انطاكية سوريا لان بقعتها كانت خصبة جدا . وكانت ضحية الاختلافات الداخلية ضمن الدولة السلوقية ؛ فاستولى عليها رؤساء مادي الثائرون «انطيوخوس» و «هيرمياس» وعاقبوها لانها انحازت الى جانب اعدائهما ، وفرضوا عليها غرامة باهظة ونفوا حاكمها الذي كان يترأس مجلس الشيوخ الثلثمئة . وفي وقت لاحق عندما حارب « تراجان » الفرثيين ؛ استولى « افيديوس كلارس » على سلوقية مع صاحبه « يوليوس الكسندر » نائب الامبراطور فاضرما النار في بعض اقسامها ، ثم تبعهما « سفيريوس » قائد « لوشيوس فيروس » فاكمل حرقها . وعندما جاء « جوليان » لم يجد سوى الانقاض بحيث ان جنوده كان يتسابقون فيها ويلهون بالصيد .

وهذه قصة وجدتها في تاريخ « اميانوس » حيث يروي ما جرى في المدينة من نهب على عهد « فيروس » . انتزع الجنود من الهيكل تمثال « ابوللو كوميوس » وارسلوه الى روما ، وشرع اخرون ينقبون في هيكل ثان فوجدوا شقا فاخذوا بتوسيمة على امل العثور على كنز ، لكنهم وجدوا في آخر الامر الطاعون الذي كان الكلدانيون الاقدمون قد حبسوه هناك فما ان خرج من الحجر حتى انتشر واكتسح اوروبا ..

يقول « تاجيتوش » بان سلوقية لم تصبح بربرية ، ثم يذكر مجلس شيوخها ، ويمدح نظامها . وهي عندما كانت توحد الصفوف نابذة الانقسامات عندئذ تتغلب على الفرثيين . ولقد اساء سكانها استعمال حق الثار ؛ ففي احدى المرات نشبت فتنة كان اليهود سببها ، فاجهزوا عليهم وقتلوا منهم خمسين الفا . ومرة اخرى ثاروا ضد « تراجان » ؛

٦٨ـ تقع مقابل الطاق في الجانب الايمن لنهر دجلة ، وردت في بعض المصادر خاصة السريانية «ساليق» ، يعرف موقعها باسم « تلول عمران » او « تل عمر » .

٦٩ـ احد قادة الاسكندر المقدوني تولى الحكم في العراق بعد موت سيده .

٧٠ـ مؤرخ بيزنطي من اصل مصري توفي نحو سنة ٦٢٩م .

فتم احتلال المدينة واسلمت للنار سنة ١١٦ ميلادية ولم تقم لها قائمة من بعد .

حاولت دون جدوى ان اجد حول موقع « السور » نهاية نهر ملكا ، واظن انها كانت على بعد كيلومترين جنوبا . من الممكن ان مخطط المدينة الاصلي كان له زوايا على صورة نسر او ما يقرب من ذلك ، اما الان فلا نجد سوى الانقاض بزوايا كثيرة .

اذا امعنا النظر جيدا في المخطط نرى ان خط السور يمتد ما بعد دجلة اي بين الطاق والنهر ، وهذا يعني ان سلوقية قسمها الشرقي على ضفة دجلة الثانية والا فلا معنى لخطوط الاسوار ، ولو فرضنا ان هذه الاكوام هي متاريس طيسفون الغربية فلماذا تتجه الى النهر يا ترى .

ملخص القول هو ان الجغرافيين قد وهموا في قولهم ان نهر دجلة كان يفصل بين طيسفون وسلوقية ، فانا اعتقد ان سلوقية كانت على ضفتي النهر ، وتفصل بينهما المتاريس التي ذكرتها اعلاه.

اما ما قيل عن عدد السكان ، اي ستمئة الف نسمة او حتى نصف مليون في سلوقية فهذا قول مستحيل بالنظر الى المساحة التي وصفتها فهي لا تستوعب اكثر من ثلاثين الف نسمة ، ومن الممكن ان نوفق بين هذه الامور كلها مفترضين بوجود « مدينة مركز » تتبعها «مدن الضواحي» ، وهذا ما يفهم من رواية امبانوس مرشيللينوس ، وما توحي به الارض نفسها ذات الخصوبة العالية ، وبهذا تعتبر سلوقية كعاصمة تتبعها ضواحي مكتظة بالسكان .

لم اجد اثارا معتبرة في مركز المدينة ، لكني اعترف بان معظم الاثار تقع خارج نطاق السور في القسم الذي نسميه الضاحية الغربية وقد اشرت اليه في الخريطة . فالاكوام المربعة تشير الى دور السكن وهي متراصفة بانتظام ، ولو بذلت جهدا اكثر واهتماما اكبر لتوغلت شرقا ووسعت مخططي. وفي هذه الحالة اعتقد بانى اصل الى منطقة « كوخي »(٧١) القديمة التي قال عنها « اريان »(٧٢) : « بلدة غير بعيدة عن سلوقية » بينما قال « غريغوريوس النزينزي »(٧٣) في كوخي انها قلعة يفصلها عن طيسفون نهر دجلة وهي لا تقل اهمية عن هذه ، واضاف « انهما تظهران كمدينة واحدة يشطرهما دجلة الى قسمين» . وهناك نص «لاميان» لكنه موضع نقاش لانه يقول « كوخي التي تسمى ايضا سلوقية » ان كلامه يخلق التباسا .

يسيطر على هذه الضاحية تل اصطناعي لعله موقع القلعة التي اشار اليها النزينزي في كلامه اعلاه.

من الجدير بالذكر ان بطريرك الكلدان الساكن في بغداد حاليا نظرا لخراب بابل وطيسفون ، يعتبر « كوخي » مركزا لكرسيه او اسقفية تابعة له .

ولو فرضنا ان تلك الضاحية التي اشرت اليها ليست موقع كوخي ، فقد تكون مدينة كبيرة حلت محل سلوقية على عهد الخلفاء ورد وصفها في كتاب جغرافي عربي يرجع الى القرن الثاني عشر(٧٤) ؛ قال : « ... نزلنا عشي النهار بقرية تعرف بزيران، وهذه القرية من احسن قرى الارض ، واجملها منظرا ، وافسحها ساحة ، واوسعها اختطاطا ؛ واكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخيل ، وكان بها سوق تقصر عنه اسواق المدن ... ان دجلة تسقي شرقيها ، والفرات يسقي غربيها ، وهي كالعروس بينهما ، والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين الشريفين المباركين .

... بازائها ، لجهة الشرق منها ، ايوان كسرى ، وامامها بيير مدائنه ، وهذا الايوان ... لم يبق من قصوره الا البعض ... واما المدائن فخراب ... »

ويضيف بعد قليل فيقول : « بالشرق منها بمقدار نصف فرسخ مشهد سلمان الفارسي ..»(٧٥).

يقول « امبان » ان في اثار سلوقية عين ماء غزيرة تصب مياهها في مستنقع ، لكني لم اجد العين ولا المستنقع ، انى لا انكر وجودها ، اذ من المحتمل ان المستنقع المذكور تحول الى هور نوهت به اعلاه .

٧١ـ هي المدينة القديمة التي جددها ووسعها سلوقس نيقاطور فسميت سلوقية ، لها ذكر في المصادر السريانية اذ كانت كرسي بطريرك المشرق ولذا كان يشار اليها باسم « كنيسة كوخي الكبرى » . انظر : السنهدوسات الشرقية ، طبعة شابو ص ٢٦٥ وما بعدها ، السمعاني : المكتبة الشرقية ٢ ـ ٢ ص ٢٦٣ .

٧٢ـ مؤرخ يوناني (القرن الثاني الميلاد) له كتاب مهم في اعمال الاسكندر المقدوني .

٧٣ـ من اباء الكنيسة ومعلميها المشاهير (٣٢٠ ـ ٣٩٠م) له مؤلفات ومواعظ .

٧٤ـ لم يذكر اسمه ، انه ابن جبير (ارشدني اليه مشكورا الاستاذ كوركيس عواد) .

٧٥ـ رحلة ابن جبير (طبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٦٤)ص١٩٢

طيسفون

عدت الى طيسفون بعد ان عبرت النهر ، وحاولت وضع مخطط لها ، وقد لاقيت صعوبة في العثور على اثار سورها ؛ مع العلم ان ما نراه من اسوار محاذية لدجلة اعتبرها اسوار سلوقية الشرقية . لكني رايت جهة الجنوب بعض البقايا في خط متقطع ، وهذا كل ما لاحظته .

الى الشرق يوجد « البستان » ، وهي اثار على حدة ساتكلم عنها فيما بعد .

مهما يكن من امر ، فعدم وجود بقايا سور طيسفون يجب الا يوقعنا في خطأ ؛ لان المدينة كانت مسورة من كل بد،وينسب «اميانوس مرشيللينوس» تشييدها الى الملك الفرثي « فردان » او « فاران » وفي كلامه شيء من الاسطورة كعادته في معظم سرده ووصفه لقصور بهران (او قصر فاران) التي رايتها في فارس ، ولكن هناك واحدا من ثلاثة او اربعة تحاك حولهم الاساطير في بلاد الفرس واسمه فاران ــ بهران ؛ انه لامر عجيب ان يكون اميانوس قد اطلع على هذه القصة . ويضيف ان « فاقور » بن « اورودس » (ولغاش) قام بتوسيعها وتجميلها. لان طيسفون كانت مشتى الملوك الفرثيين ، بينما كان مثواهم الصيفي في « اكبتانا » او في « هرقانيه » . واصبحت عاصمة دائمية للملوك الساسانيين ، وكانت عظيمة لان « سفيروس » اسر منها مئة الف نسمة ؛ وكانت منيعة ، فعندما زحف « اردوان » امير « تدمر » على بلاد ما بين النهرين وسيطر عليها ، وجد السكان فيها ملاذا امينا لمناعة اسوارها . اما « يوليان » المظفر فلم يجسر على حصارها ؛ بل ذهب جنوبا نحو عشرين كيلو مترا وهناك لقي مصرعه .

حاولت ان اجد بقايا اثار في السهل المحيط بالطاق فلم اعثر على شيء في الجهتين الجنوبية او الشرقية ، وبعد فحص اكثر توصلت الى العثور على اكام وانقاض الى الشمال من الطاق عند الموقعين اللذين يطلق عليهما اسم « زنبيل » Zembil ومعبرو Maero ولم اواصل البحث لسوء الحظ فالوقت المخصص لزيارتنا قارب على الانتهاء ولم يكن باستطاعتنا ان نمكث اكثر فنعطي لهذا الموقع وقتا اكثر ودراسة ادق ، فاكتفيت بتحديد مسارات الطرقات والسبل ، وكم اتمنى ان يكمل العمل مذهب اخر سواي في المستقبل .

لقد اعتبرت هذه المنطقة ضاحية انطلاقا من فكرتي بان الطاق يمثل مركز المدينة ؛ لكني اميل الان الى الاعتقاد بانها من ضمن المدينة ، فالطاق هو بقية قصر ، وليس بالضرورة ان يكون القصر خاصة في الشرق في المنطقة الاكثر كثافة من المدينة .

كتب « هيربلو »(٧٦) في مؤلفه « المكتبة الشرقية » يصف هذا القصر وصاحبه « كسرى ابرويز » ، وفي وصفه مبالغة وشطط . .

وذكرت ان كسرى ابرويز سكن في « الطاق» ولم اقل انه اسسه ؛ فالبناء حسبما يظهر يرجع الى كسرى اخر هو « انوشروان » المشهور ، وهو جد « ابرويز » .

ان الحالة التي وصل اليها الطاق لا تعود الى عوامل الزمن والطبيعة فحسب ، ولكن الى عمل احد الخلفاء ــ العباسيين ــ المشهورين ، وهو « ابو جعفر المنصور » الذي اسس بغداد ، إذ اعتقد انه من السهل هدم قصر كسرى والاستفادة من مواده ، لكن حجم القصر المهيب دفعت الوزير الى محاولة اقناع سيده بعدم جدوى القرار قائلا ان هدم القصر يتطلب معجزة ، والمعجزة من اختصاص النبي فقط ، فاذا شرعت بالهدم ولم تكمله تصبح مثار ضحك الناس اجمعين اذ سيقولون عنك انك لم تستطع بناء شيء جميل الا بهدمك شيئا جميلا . لكن الخليفة اصر في قراره واستخدم عمالا كثيرين، ولم يتوصل الا الى تشويه البناء المهيب ثم توقف ؛ فاعطى فرصة للشامتين ان يتكلموا عنه . .(٧٧)

كما اسلفت فان موقع المدينة في ظني كان الى الشمال من الطاق ، وبهذا فاني اخالف راي «اوبير» الذي يعين موقعها في جنوب الطاق حيث توجد اكمات تنحصر في داخل شبه جزيرة متكونة من انعطاف دجلة ، فهو يعتقد ان طيسفون غطت هذه المنطقة . ان قوله لااساس له ، واعتقد ان الاستاذ العالم بالسماريات لم يلق نظرة قريبة على الموقع ، ومما يؤيد ما اقوله مثال آخر في كلامه عن البستان التي ذكرتها اعلاه ، اذ قال :

« الى الشرق من طاق كسرى ، اي نحو فرسخ منه، توجد بقايا سور مربع في اربع اتجاهات : الشرق والشمال والغرب ؛ اما الجنوبية فكانت محاذية

٧٦ــ مستشرق فرنسي (١٦٢٥ ــ ١٦٩٥) له « قاموس شعوب الشرق » . وهو نفس الكتاب الذي ذكره السائح بعنوان مختلف .
المقتبس : المستشرقون ١٧٣

٧٧ــ معجم البلدان : مادة « ايوان كسرى » ، مختصر مناقب بغداد ص٨ .

للنهر هذا لو وجدت . ان هذه الانقاض لا تعود الى العصر الساساني بل قد ترقى الى العهد البابلي . ان مدينة طيسفون في راينا ، كانت مكونة من القلعة الملكية والمدينة بحد ذاتها والحصن ، والقلعة هي اقدم الاقسام في المدينة » .

او رجعنا الى الخارطة لظهرت بوضوح الاخطاء المادية التي اقترفها السيد « اوبير » في الفقرة التي وردت اعلاه ، فقوله ان انقاض البستان اقدم من العصر الساساني لا اساس يدعمه ، فكل ماهناك انقاض مشوهة بامكاننا ان ننسبها الى العصر العباسي اذ انها فقدت اصالتها . الشيء الوحيد الذي يؤيد قوميتها هو ان في هذا الموضع تم العثور في ظروف لا اعرفها جيدا على حجرة « ميشو » الثمينة التي تحمل كتابة مسمارية ، هذه القطعة هي من اجمل كنوز متحف اللوفر .(٧٨)

عشائر المنطقة

في ذلك السهل ، على مسافة اطلاقة بندقية من الطاق ، رايت خيام العرب القاطنة ، ان هؤلاء البدو يسكنون ذلك السهل حتى اقدام الجبال المتاخمة بفارس . وكثيراً ما نراهم في بغداد حيث ياتون لبيع الاصواف ومختلف المحاصيل الموسمية ومن ذلك جلود الفهود . لكنهم في الغالب يبتعدون عن المدن ويفضلون الحياة في عمق الصحراء .

ان احد رفاق الرحلة المدعو « وارتمان » وهو موظف في « بيت ويبر » (وهي شركة)اخبرني بانه كان يتوغل في الصحراء مراراً حتى بدرة اومندلي ويشتري بالجملة منتوج الصوف السنوي ، وكان على علاقة بالشيوخ لذا كان ينتقل بينهم بلا خوف ١٥ ــ ٢٠ يوما وحيدا وبلا سلاح ، وقد عرض علي ان ارافقه في جولته القادمة بعد ايام قليلة ، فاعتذرت رغم رغبتي الكبيرة لضيق وقتي .

ينتمي العرب القاطنون في منطقة طيسفون الى ثلاث عشائر :

شمر والمنتفق وبني لام ، وكما قلت انفا ان الاتراك يهابون جانبهم ولا يتوغلون في ديارهم ...

هذه بعض المعلومات التي جمعتها عن احدى تلك العشائر وهي عشيرة شمر النازلة في المنطقة الممتدة من بابل وبين النهرين الى الفرات ، ولعلها تتجاوزه . ان شيخ شمر الحالي شاب يحكم عشيرته بيد من حديد ، ورغم ذلك فهو يتمتع بشعبية بين اتباعه لانه حسب التعبير الشعبي « يده مفتوحة » فهو ياخذ من هنا وهناك ليقدمه باليد الاخرى لمن يحتاج اليه .

حاولت الدولة قبل بضع سنوات كسب ود هذا الشيخ القوي ، فارسلت له البراءة السلطانية مع النيشان العثماني ــ المجيدي ، وجاء قواص خاص يحمل الانعام السامي باسم الوالي الحاكم في بلاد مابين النهرين . فاستقبل الشيخ الشاب هذه المكرمة بلا مبالاة ولم يعرها اهمية . وفي ساعة وصولها الى الخيمة ، نزل على الشيخ شمري من المرام ، فنظر الى النيشان المحاط باحجار الماس في صدر الخيمة ، فاظهر اعجابه وتقدم منه واخذه دون تردد . ولم ينبس الشيخ ببنت شفة ورأى في الامر كله شيئا طبيعيا ، فالعادة بين الاعراب ان ابدى احدهم اعجابه بشي فلايليق بصاحبه منعه من اخذه خاصة ان كان قد اشتهر بانه صاحب اليد المفتوحة » .

ارسل الشيخ البراءة الى امه(٧٩) ، فطلبت ان يقرا نصها عليها واستغربت ان ابنها لا يحمل الوسام فاستفسرت عن السبب فاجابها ببساطة : لم يعد معي :

قالت : هل وهبته ؟ قال : كلا ، لكن علي الامور دخل خيمتي واذ ابدى رغبته بالحصول على الحلية التركية فاخذها ولم امنعه اذ لا يليق بي فعل ذلك. قالت : ماذا ايها الاحمق ، اتترك نيشان البادشاه لهذا الكلب الاجرب ، اسرع فاستدعه واسترجع النيشان باي ثمن كان ، وهكذا فعل .

ان هذه الامراة تدير شؤون قبيلة شمر (الى الان) من وراء اسم ابنها ، ولقد كان لزوجها، شيخ العشيرة السابق ، ثقة كبيرة فيها وترسخت الثقة في قلوب ابنائها ، وهي التي تجاوب على الرسائل التي ترد الى ابنها ، انه يمثل جانب القوة، وهي تمثل جانب الحنكة والعلاقات الجيدة . وبما انها امية فقد اتخذت لها كاتبا امينا تملي عليه رسائلها ويقرأ عليها الرسائل الواردة الى ابنها . ان تاثير النساء في الامور العامة نادر جدا في وسط المسلمين الحضريين ، ولكن قد نجد اثاره مابين البدويين .

٧٨ــ طه باقر : مقدمة ص ١١٥ .

٧٩ــ انها همشة زوجة صفوك « سلطان البر» شيخ شمر الجرباء .

تمتد مواقع عشيرة شمر شمالا حتى طريق اورفا ـ ماردين ، والحكومة التركية ضعيفة جدا ولا سيطرة لها عليهم ؛ فتدفع لهم اموالا ، او بالاحرى تترك لهم الحرية في اخذ الخاوات من اورفا وماردين والموصل وديار بكر وغيرها ؛ هذه المدن تدفع الاتاوات سنويا لقاء مرور القوافل عبر اراضيهم بسلام ؛ ارجو الا نستغرب هذه الامور ، وان كانت ذاكرتي لم تخني ، فقبل قرن ونيف كان سكان اسكتلندا يدفعون امثال هذه الاتاوات حفظا على مواشيهم من الغزو والنهب .

بلغني خبر لا اعلم مدى صحته لكنه ان تحقق سيجبر الشمريين على الهدوء ؛ قيل ان الباب العالي اراد تقديم خدمة لالاف الشركسيين الذين نزلوا على العاصمة فقرران يسكنهم في مستوطنات امينة في قلب البادية ، وبدا بناء المدينة وخصصت الاراضي الزراعية واسند اليهم واجب المحافظة على الطرق ومنع البدو عن العبور من دجلة الى الفرات وبالعكس ، وستقوم قرى اخرى على طول الخابور . وقد يظهر الحل جيدا ، لكن العالمين بالامور وبطبيعة الارض واخلاق الشركسيين يفكرون بطريقة مختلفة ويقولون ان الامور قد تنقلب بحيث يتحالف ابطال القوقاس مع البدو ويتعاونون على النهب .

★

عندما انتهيت من وضع الخرائط والرسوم ظهر في الافق قارب بخاري ؛ قادما من الجنوب اي من البصرة ، وبعد نصف ساعة وصل الى البستان فانتظرته معتقدا انه سيمر بعد دقائق امام الايوان فاذا به يبتعد ويغيب عن الانظار في نفس الاتجاه الذي اتى منه تقريبا . ان الخارطة تفسر هذه الظاهرة فالنهر بعد مروره امام البستان ينعطف بحدة نحو الجنوب ، فيستغرق المركب نحو ساعتين للوصول الى طيسفون .

يهود العراق

وصلت الباخرة وكانت فارغة تقريبا ؛ فهذه فترة حج اليهود الى ضريح « عزرا » الواقع على الجهة اليسرى من نهر دجلة في طريق بغداد ـ البصرة وفي هذه الفترة تكون المراكب الهابطة الى الجنوب مكتظة بالمسافرين الحجاج ؛ وتعود فارغة ، وبعد خمسة عشر يوما يحدث العكس اذ ان المراكب الصاعدة تمتلىء بهم ولقد سنحت لي الفرصة ان اشاهد عن كثب قاربا مليئا بيهود ما بين النهرين من مختلف المستويات التي يمكن ان نتصورها . هناك وجوه شابة لا تعبر عن شيء لانها لم تستوعب بعد الحياة اليهودية ، وهناك وجوه المسنين يذكرنا بعضها بالاباء الاقدمين ؛ ووجوه التجار ذوي النظارات الصغيرة ، وامام هذا المنظر يحتار المرء بين الوجوه الجليلة فيكاد يتقدم نطلب البركة وبين الوجوه البائسة فيفكر المرء بالتصدق على اصحابها بفلسين .

اما وجوه النساء فهي اكثر تعبيرا لانها حافظت على القسمات الطبيعية التي لانجدها بين الذكور ...

ان ضريح «عزرا»(٨٠) الذي يقصده هؤلاء الناس هو بناء بسيط ؛ يقع على ضفة النهر ، وهو غني بالهبات والنذور في الداخل ، اما من الخارج فلا شيء يميزه عن اي مزار اسلامي ؛ وهناك تقليد ـ اشك شخصيا في صحته ـ يقول بان النبي الذي احبه قورش مات هناك ... ونجد ان اليهود يجلون عزرا ويحجون الى مرقده اكثر مما يفعلون نحو صاحب « الكفل » اي حزقيال النبي ؛ فهذا لا تصله الباخرة ، وذاك يعتبر نبي الآمال .

موقع « البستان »

في ذلك السهل الخالي من اي اثر للحياة ؛ يرتفع ناحية الجنوب اثر آخر من شاكلة « السور » ذلك الاثر الذي وصفته اعلاه ، وهذا احسن حالا من ذاك ، فذهبت لاراه من قريب واصف خطوطه فلاحظت بقايا جدارين متصلين بزاوية حادة كانا من كل بد مربعا لكن تلاطم المياه حرفت قسما من الاثر ، فالنهر اذ يمر هناك يجري بقوة اكثر من الضفة المقابلة . ان التقليد المتواتر يطلق على هذا المكان اسم « البستان » كما يسمون اكمة الموضع ذاته « تل باغي » اي تل البستان . ولكي نشرح هذه التسمية نعود الى الفقرة التي وردت عند « اميان مرشيللينوس » في مجرى كلامه عن حملة «جوليان» عندما انطلق في سلوقية . فقد سار الامبراطور من هذه المواضع الاثرية متوجها الى نهر ملكا لكي يضرب خيامه هناك ؛ ويسميه « اميان » النهر الجارف ؛ فرآه مملوءا بصخور كبيرة الى وسطه ـ وهذا ما لا اصدقه لقلة الاحجار في هذه المواضع ـ فامر بازاحة الصخور ، فعاد تدفق المياه وركب الجنود

٨٠ـ يعرف « بالعزير » وموقعه معروف في جنوب العراق بين القرنة والعمارة على عدوة دجلة اليمنى (احمد سوسة: ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق ، ص١٥٥) .

القوارب الى دجلة ونزلوا على الضفة اليسرى مقابل طيسفون . ويضيف اميان :

في الضفة المقابلة تجد ريفا نضرا غنيا بالخضروات ، عامرا بالبساتين ، وهذا ماكنا بامس الحاجة اليه ؛ فنزلنا للاستراحة في ظلال الاشجار. ويقوم هناك دار في وسط غابة السرو يحيطه ظل وارف وكانت جدران الدار من الداخل مليئة برسوم بدائية تمثل الملك بصورة مختلفة ؛ وهو يصيد الوحوش ؛ فتلك الشعوب لا تستخدم الفن الا في لوحات الحرب والقتل والبطش » (الكتاب ٢٤ : ٦).

مع الاسف الشديد زالت الكروم والبساتين منذ زمن بعيد ، لتحل محلها الصحراء القاحلة التي لا تجد فيها اغنام عشيرتي بني لام وشمر الهزيلة الجائعة الكلأ الضروري . اما البستان فيختلف عن المقصورة الخاصة بالملوك الساسانيين، واما الرسوم الداخلية فلا اثر لها ولا اعتقد ان الفن قد اضاع شيئا مهما بزوالها ؛ فغرور الملوك الفرس الذي يشير اليه « اميان » لا يزال الى اليوم . فلا تجد قصرا ملكيا في بلاد فارس الا وفيه رسوم جدارية تمثل ملكا متسربلا بلباس ازرق ، وله لحية سوداء، ونظرات ثاقبة تصيبك على بعد خمسين خطوة ؛ اضافة الى شاربين مخيفين ملتويين ، وتراه جاثماً بضراوة على اسد وردي اللون ترك نفسه فريسة سهلة بيد الملك الذي يمثل احيانا قائدهم المشهور رستم .

مر السائح الانكليزي ادورد ايفز سنة ١٧٥٨ بأثر البستان وكان في حالة احسن مما هي عليه الان واشار الى انه كان بثلاثة وجوه ، واما الرابع فهو النهر ، وطول كل وجه نحو ميل (وهذا غير ممكن) وارتفاع الجدران اربعون قدما وسمكها ثلاثين ، وهو مقتنع بان البناء المذكور كان قلعة للدفاع عن طيسفون ، ان الرجل جدير بالثقة في وصفه العام لهذه الاثار فاني اصدق ان البستان كان له ثلاثة اوجه على عهده وان الاسوار كانت اعلى مماهي عليه الآن . لقد بقيت طيسفون مثوى الملوك الساسانيين حتى سقوطها امام المسلمين(٨١)

تركنا طيسفون نحو الساعة العاشرة صباحا وبعد سير حثيث عدنا الى بغداد دون ان نلاحظ شيئا مهما في الطريق ، اللهم مارأينا من كثرة الجراد الغارق في نهر ديالى حتى اصبحت مياه النهر صفراء اللون ... فمنطقة بابل لم تنج من هذا البلاء الطائر الذي غزا الشرق كله هذا العام . وفي بغداد نزلت في القنصلية ... اذ لا وجود للفنادق في هذه الديار ، فيذهب كل سائح الى قنصلية دولته ... اما اهل البلد فيحل كل واحد عند ذويه ، فالضيافة عند الشرقيين من الامور المهمة حتى درجة التقديس ... اما في الاماكن المقدسة او في الطرق المؤدية اليها فهناك خانات ينزل فيها الحجاج شيدها الامراء او التجار لوجه الله ...

الاكراد واليزيديون

عكفت خلال الايام القليلة من بقائي في بغداد على دراسة سكان بلاد بابل ، فهذه دراسة جديرة بالبحث اكثر مما كنت اظن للوهلة الاولى .

سبق وان قلت ان العرب يسكنون هذه البلاد في مناطق تمتد الى الجبال . اما في الجبال فتسكنها سلالة تختلف عن العرب وهم الاكراد ، ويتراوح عددهم نحو ثلاثة ملايين نسمة في منطقة تبدأ من «طرابزون » على البحر الميت وتنتهي عند ابواب « سوسة » . لقد خالطت الاكراد واكن لهم احتراما عاليا ، وفي لغتهم سمة القدمية ... ومن الصعب بمكان ان يستضيفك الاكراد ، ولكنهم متى مافعلوا فبامكانك ان تنام قرير العين حتى ولو كنت تحمل الف دوقية(٨٢) في همیانك . ان مايهذب اخلاقهم هو ذاك الشعور بالمساواة في بيئتهم ليس مع الفقراء فحسب بل وحتى مع النساء . واسوق هنا مثلا يؤيد فكرتي ، فقد ذكر انه عندما نشبت حرب الشرق(٨٣) ، اعلن الباب العالي الجهاد فاثار مشاعر المسلمين الدينية فاذا بجحافل المؤمنين يتوافدون على اسطنبول من مختلف الاقطار حتى من اعماق آسيا ، واكتظت شوارع العاصمة باناس بازياء متنوعة ، يحملون مسدسات طويلة وبنادق منقوشة يرجع بعضها الى عهد سليمان القانوني ، ولكن كل تلك المناظر لاتقارن بموكب الاميرة الكردية «قره فاطمة » (اي فاطمة السوداء) وهي سيدة قومها في احدى مناطق جيورجية في كردستان التركية . لقد لبت دعوة الجهاد واتت مع رجال قبيلتها . لم تكن شابة كما يظهر من تصويرها ، وكانت قبيحة الصورة ، ومقابل ذلك كان الفرسان الذين تبعوها اجمل قطاع طرق بامكان رسام رومنطيقي ان يتصورهم. فرحت الدولة لحضورها

٨١ـ يسرد المؤلف قصة عن ازرميدوخت ، اهملنا ترجمتها اذ لاعلاقة لها بالرحلة ، ولا فائدة تاريخية فيها .

٨٢ـ هي دنانير البندقية والنسبة الى اميرها وهو «الدوق»

٨٣ـ يشير الى حرب القرم ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦

اذ تركت وقعا طيبا في نفوس المؤمنين ، لكن الدولة حالت بالطبع دون ارسال « قره فاطمة » وحرسها الى الحرب ، فالشجاعة والنيات الحسنة لا تكفيان لمجابهة العساكر المنتظمة القادمة من موسكو واصبحت الاميرة السوداء في نظر المجتمع الاسطنبولي « اللبوة » وبعد بضعة اسابيع عادت الى جبالها واسدل الستار على حياتها ، لكن قصتها انتشرت وتناقلتها الالسن في اسطنبول ، واشتهرت هناك اكثر مما في منطقة كردستان .

اليزيديون

هناك جماعة اخرى جديرة بالاهتمام والدراسة نظراً للغموض الذي يكتنفها. هي طائفة «اليزيدية» انهم يعيشون بين الاكراد ويتكلمون الكردية ، لكنهم يتميزون عنهم . يتوزعون في قرى متناثرة تنتهي في ارمينية الروسية .

لقدخالطت الكثيرين منهؤلاءالمنبوذين ،وليس لي الا ان اشهد لصالحهم . في احدى المرات ذهبت لزيارة اثار « كوهرسار » Kohrasar في قرية كرديةومعي قواص مرسل من الباشا وثلاثة رجال للحماية، فاسرع القواص يعلم اهل القرية بوصولي ويطلب موضعا تنزل فيه ، فاذا باهل القرية يمتنعون عن قبولنا ، ولسان حالهم يقول اننا فقراء ولسنا على استعداد للعطاء بل للاخذ ... وشعر القواص بحراجة الموقف ... وتبادل معهم بالشتائم ... واذا برجل يزيدي يتقدم ويعرض علينا ضيافته ...

انهم لا يعبدون الشيطان ، لكنهم يعتقدون انه سيتم في آخر الازمنة المصالحة بين الله والشيطان، فمن باب الاحتياط يتقربون منه منذ الآن ، واذ يرفعون الادعية اليه فليس من باب العبادة . انه مظلوم وليس من العدل ان يلعن المظلوم او يهان .

يعتبر الشيخ عادي محور جماعتهم ، وانا لم اعرف من هو بالضبط ولعله مؤسس ديانتهم ، لكنه بالنسبة اليهم انسان ــ اله ... وله مزار كبير بالقرب من الموصل . وقد وصفه ميشر انكليزي اسمه « بادجر » وفي ذلك المزار يوجد « الديك » او « الطاووس » المقدس . وفي فترة وجودي في تلك الديار سطا بعض السراق على الطائر المقدس طمعا بمادته، فعم الحزن ابناءالطائفة كافة . ونزل الشيخ الى الموصل يرفع الشكوى امام واليها . وكالعادة لم يحرك الوالي ساكنا ، ولذا قرر اليزيديون ــ وهم اغنياء ــ ان يجمعوا التبرعات ويقدموها كجائزة لمن يرشدهم الى الديك المسروق ، فان لم يعثروا عليه فسيعمد كبير الكهان الى عمل ديك جديد ولون الجديد لن يتمتع بحسنات القديم وقدراته :

انه سيموت جوعا ان لم يفعل ذلك ، لان الطائر المذكور يدر عليه ذهبا اذ يطوف به رجال الدين سنويا في القرى فتنهال عليهم التبرعات والهبات ، وطريفتهم في ذلك انهم عندما يصلون الى قرية يعلنون عن مزايدة(٨٤) ، ويحل الطائر المقدس في بيت المتبرع الاكبر في المزايدة ، ويجتمع اليه ابناء الطائفة ... وكانوا يصلون في طوافهم الى روسيا ويجمعون مئات الالاف من القروش التي تذهب الى جيوب رجال الدين وخاصة الى شيخهم الاكبر، وكان اميرهم عربيد سكير لم يتورع منذ فترة عن رهن الديك خمسة اعوام عند احد المرابين (وهو قنصل لدولة اوربية) باربعين الف قرش سنويا يستلمها هذا المدعو « جواد »(٨٥) لقاء مجموع التبرعات كلها ، كانت صفقة غير شريفة ، لكنها رابحة بالنسبة الى السيد م ، واختم كلامي عن « جواد » المذكور فاقول انه كان في الموصل عند مروري بها في عيد الفطر الاخير ، وكان موضوع تهكم الناس واشمئزازهم وهم يشاهدونه في الطرقات وقد شرب حتى الثمالة ، الى ان سقط يوما عن بغله وجرح جرحا بليغا .

رحلة الى عقرقوف

ذكرت في مجرى كلامي عن طريق عودتي من بابل اني رايت الى يساري اثار «عقرقوف» الهائلة وهي الاثر الوحيد المتميز بالقرب من بغداد ، ويقع على بعد اربع ساعات عنها ، فذهبت لرؤية هذا الاثر. انه اشبه مايكون بتل تراكمت الانقاض حوله فاضاعت معالمه .القيت نظرة عامة على الموقع فرايت كما في بابل مجموعة من الاكمات واثار قنوات واستغربت انى لم اجد البحيرة التي يشار اليها في الخرائط الى الشرق ، او الشمال الشرقي من الأثر ، وعلمت انها قد جفت ، ونمت في مكانها شجيرات ملساء حمراء لا اعرف اسمها ، لكنها منتشرة في الشرق ، وكانت كثيفة بحيث اعطت منظرا غريبا وكانها بحيرة دم .

٨٤ــ انظر : صديق الدملوجي : اليزيدية (الموصل ١٩٤٦) ص١١

٨٥ــ ذكر الدملوجي اسم جولوبك وقال فيه « لم نحمد سيرته واليزيدية لا يذكرونه بخير » ص٢٥ لعله المقصود فيما ذكر السائح .

بعد ان فحصت الاثر ، رايت ان الوصف الذي تركه « اوليفيه » هو احسن ماكتبه عنه لذا سانقله على علاته : « الاثر عبارة عن جرم متين ، مربع الشكل ، مشيد بالآجر ، تعرض للهدم من جهتين بهدف الوصول الى داخله ، فالاعراب يعتقدون ان كل الاثار القديمة لابد انها تضم كنوزا. اللبن المستعمل للبناء لم يفخر بالنار ولكن بالشمس فقط . تبلغ مساحة القطعة الواحدة نحو ثلاثة عشر عقدة مربعة ، وسمكها نحو عقدتين ونصف. تم البناء برصف القطع متوازية وبواسطة الطين . بامكاننا ان نعد ثمانية صفوف او عشرة ويكون ثخنها نحو قدمين او قدمين ونصف . وقد وضعوا بين صفوف الاجر طبقة من الملاط الخشن واخرى سمكها عقدتين او ثلاث من التبن او القصب المشابك ، فالطريقة اذا وضع الاجر فوق القصب ثم الملاط فوق الآجر وهكذا في البناء كله الى قمته . الشيء الوحيد الذي لاحظناه ان طبقات الآجر ليست متساوية دائما اذ تختلف في السمك فبعضها يصل قدمين والبعض الاخر الى ثلاثة اقدام تقريبا وقد تركوا مسافات او فتحات مربعة لعلها لنصب الصقالات اوللاسراع من تجفيف البناء العظيم، فالفتحات عميقة كما يظهر . لقد ظهرت اليوم طبقات القصب خارجا عن الاجر وترى من بعيد وهي بحالة جيدة لانها قاومت عوامل الزمن اكثر بكثير من امتن انواع الاخشاب ، وقد اصبح لونها بنيا حيث تعرضت للهواء ، ولو سحبنا بعضها ، كما فعلنا في طيسفون ، لظهر انها من نوع القصب الذي ينمو على ضفاف النهرين وفي الاهوار .

لم يعثر على عدد كبير من الرقيمات في عقرقوف ، لكن واحدة كانت تحمل الكتابة التالية: « اكراما للاله سين ، ملك الشرق كوريكالزو ، خادم الاله سين ، شيد بيت السيد العظيم ، هيكل جلالته ، هيكل ...» هذه اللقية والاسم الذي تحمله لملك مجهول الهوية اكدت ماذهب اليه بعض الاثاريين في اعتبارهم عقرقوف هي مدينة دوركوريكالزو الوارد اسمها في كتابات مسمارية اخرى ، وكانت مدينة حدودية كما يفهم من الكتابة التالية لملك نينوى تجلاتبلنصر(٨٦) في القرن الثامن وهو الذي وجه ضربات الى الدولة البابلية ، وهذا نص الكتابة : « منذ يوم قدومي ، ملكت على بلادي ابتداء من دور كوريكالزو وسيبارا مدينة الشمس وباسيت التي هي في بلاد دونا ، الى نيبور بلد الايتوسيين والربوسيين على ضفاف دجلة من سورابي والى الاوكنسين اللذين يصبان في البحر ».

يظهر من ذلك ان الدولة البابلية لم تكن مهمة في ذلك العهد ، وكانت محدودة بعقرقوف وسيبارا وباسيت بين دجلة والفرات ، واخيرا المنطقة التي نطلق عليها اليوم اسم عربستان اي مابعد دجلة .

هناك علماء يرون شبها بين اسم عقرقوف واكد التي ترد في التوراة ، والتي شيدها نمرود ، وجدير بالذكر ان الاهالي يطلقون على هذه التلة اسم نمرود او نمرود طابي سي ، ولو ان قولهم غير جدير بالاهتمام .

اسم نمرود

ان اسم نمرود شائع في طول بلاد بابل واشور وعرضها ، كاسم ابراهيم الذي يملا ارجاء ما بين النهرين ، او اسم قيصر في انحاء فرنسا القديمة والاسكندر في سائر بلاد الشرق . فمن اين اتت شهرة هذا الاسم الذي ينسب اليه مئة موقع او مجمع بشر . وهو يظهر في التاريخ كصياد ماهر امام الرب(٨٧) .

الواقع ان الصيد لم يكن لهوا في الازمنة القديمة كما هو الان، وكما يمارسه المعاصرون ... لكي نفهم الصيد قديما يجب ان نتذكر الغابات الكثيفة التي كانت تغطي مساحات كبيرة من الارض ... وكان الصيد يتطلب شجاعة ومهارة وقوة ، كان صراعا من اجل البقاء من اجل الحياة ...

٨٦ـ ذكر الاستاذ طه باقر اسم تجلاتبلزر الثالث (٧٤٤ ـ ٧٢٧ ق . م) وكان ملكا قويا (المقدمة ص٥٠٨ ومابعدها)

٨٧ـ تنوبه بما ورد في سفر التكوين ١٠ : ٩ « نمرود جبار صيد امام الرب » .